تاريخ روسيا الديني

من الوثنية الى المسيحية

د. ايناس سعدي عبدالله

د. اسامة عدنان يحيى



تاريخ روسيا الديني

من الوثنية الى المسيحية

د. ايناس سعدي عبدالله- د. اسامة عدنان يحيى

الطبعة الاولى: 2019

الترقيم الدولي(ISBN): 978-9922-9104-7-5

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق: 3856 لسنة 2019

حجم الكتاب: 15×21



تاريخ روسيا الديني

من الوثنية الى المسيحية

د. ايناس سعدي عبدالله

د. اسامة عدنان يحيى

مقدمة.

يمثل تاريخ الدين السجل المدون للتجارب والافكار الانسانية، فهو ينطوي على دراسة المعتقدات الدينية التي كانت موجودة قبل ظهور السجلات المكتوبة وحتى العصور الحديثة. وقد لعبت الكتابة دوراً رئيساً في توحيد النصوص الدينية بغض النظر عن الزمن والموقع، فضلاً عن تسهيل حفظ النصوص، الصلوات، والقواعد الإلهية.

ان تاريخ الدين في روسيا يمثل دراسة ذات اهمية بالغة للمؤرخين المهتمين في تاريخ الدين بشكل عام؛ والمؤرخين المختصين في تاريخ روسيا بشكل خاص؛ لأنها تقدم اضاءة على احدى جوانب التاريخ الروسي التي قل تسليط الاضاءة عليها، ولاسيما في المكتبة العربية التي ركزت بشكل كبير على الدراسات السياسية والاقتصادية؛ فضلاً عن ذلك ان المكتبة العراقية بشكل خاص تعاني من نقص كبير في دراسة التاريخ الروسي، الذي يُعد مجالاً خصباً للمؤرخين لاسيما في مراحله الاولى، وذلك بسبب ندرة المؤلفات حول هذا التاريخ، فهي إما في اللغات الاجنبية، أو مترجمة، وحتى هذه المؤلفات فهي قليلة وليست ذات اهمية في المؤسسات الاكاديمية، مما ادى الى اهمال الكتابة في هذا المجال من قبل المختصين في التاريخ الحديث والمعاصر، وعدم توجيه طلبة الدراسات العليا للكتابة في حقل الدراسات الروسية؛ مما جعل تاريخ روسيا تاريخاً غائباً مهملاً في كافة مراحله في الدراسات الاكاديمية.

ان هذه الدراسة ستقتصر على ثلاث جوانب مهمة هي: الوثنية السلاقية؛ ودخول المسيحية الى روسيا في القرن العاشر الميلادي وتطور الكنيسة الارثوذكسية حتى الحرب العالمية الثانية؛ واخيراً الطقوس الشامانية في سيبيريا وبقايا التقاليد الوثنية في العصر الحديث في المجتمعات الريفية الروسية.

كان السلاف الشرقيون وثنيون، فقد كانت دياناتهم حيوية، ومجسمة، ومستوحاة من الطبيعة. كما كان للسلاف آلهتهم الخاصة بهم؛ غير انه في القرن العاشر الميلادي تبنى الأمير ڤلاديمير الأول، بعد ان تم تحويله من قبل المبشرين من بيزنطة، المسيحية كدين رسمي لروسيا، ومنذ ما يقرب من 1000 عام اصبحت الكنيسة الارثوذكسية الروسية المؤسسة الدينية المهيمنة في البلاد؛ ولكن بعد ان تولى الشيوعيون السلطة في عام 1917 عانت هذه المؤسسة الكثير؛ إذ تم مصادرة معظم ممتلكاتهم، كما تم طرد العديد من الرهبان من الاديرة. ورغم ان دستور الاتحاد السوڤييتي كان مضموناً بالحرية الدينية، إلا ان الانشطة الدينية كانت مقيدة الى حد كبير، وعُدت العضوية في المنظمات الدينية غير متوافقة مع العضوية في الحزب الشيوعي.

رغم انتشار المسيحية في روسيا إلا ان بقايا الوثنية ظلت موجودة لاسيما في سيبيريا كما يظهر جلياً في الطقوس الشامانية هناك، وبعض التقاليد الشعبية في المناطق الريفية الروسية، مما يشير الى عدم قدرة المسيحية على التغلغل هناك.

المؤلفان

خريف 2019

1

الجذور الأولى للمعتقدات الدينية

ما قبل السلافية

لا نعرف متى بدأت الجذور الاولى للمعتقدات الدينية في روسيا القديمة، لكن يمكن القول بشكل عام ان السكان الاوائل في الاراضي الروسية لم يكن لهم اية مفاهيم دينية محددة خلال العصور السحيقة، إلا ان عجز الانسان في صراعه مع الطبيعة وتصوراته الغامضة عنها ولدت عنده مع الزمن ايماناً بقوى مقدسة، اي ولدت الدين؛ واخذ الناس لجهلهم بأسباب الموت والمرض يشعرون برهبة متزايدة منها، ويتصورون ان للإنسان روحاً تستطيع ان تغادره، وهكذا ظهر الإيمان بالآخرة. كما اضفى الناس على مختلف الظواهر الطبيعية صفة القوة الخارقة وحولوها الى آلهة، فألهوا الرعد والبرق والحيوانات الوحشية وجهدوا في ارضائها مقدمين لها الاضاحي وملتجئين الى الدعوات السحرية، وسرعان ما برزت عبادة الارض الام أو إلهة الخصب، وعبادة الاسلاف[1].

تم الكشف مؤخراً(عام 2014) عن مستوطنة ضخمة في اوكرانيا فيها معبد كبير يعود تاريخه الى حوالي 4000 قبل الميلاد، وتبلغ مساحته(60×20م)، وهو على مؤلف من طابقين، ومشيد من الخشب والطين، ويحيط به فناء، والطابق

---

[1]) بيوتر يبيڤانوف وايڤان ڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي، ترجمة: خيري الضامن ونقولا الطويل،(موسكو: دار التقدم، بلا. ت)،ص16.

العلوي ينقسم الى خمس غرف[1]، وبلا شك يُعد هذا من اقدم مواقع العبادة في الاراضي الروسية.

اشارت التنقيبات الاثرية التي جرت في موقع تريپولي(Tripolye) قرب كييف(Kiev) عن وجود اقدم القرى الزراعية في اوروپا الشرقية، وقد عاش سكان تريپولي في الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد[2]، ولا نمتلك ادلة كثيرة عن معتقداتهم الدينية سوى تماثيل النساء المصنوعة من الفخار والتي تصور إلهة الخصب، وحامية القرية[3]، وهي من النماذج التي تُعرف آثاريا باسم الإلهة-الام[4].

قدمت لنا قرية مايكوب في القوقاز الشمالي[5] دلائل حول المعتقدات الجنائزية، اذ دُفن زعيم القرية في قبر، وزيُنت ملابسه بحُلي من المعادن الثمينة والاحجار النادرة، وعلى رأسه شارة السلطة وهي أكليل من الذهب، وقد أوضحت لنا تقاليد الدفن اقدم الادلة على الاضاحي البشرية، فقد كان

---

[1]) Owen Jarus, "6000 Year Old Temple With Possible Sacrificial Altars Discovered", in: Live Science, October, 20, 2014; April Holloway, "Archeologists unearth 6000 Year Old Temple in Ukraine", in: Ancient Origins, 21 October, 2014.

[2]) حول دراسة مفصلة عن حضارة تريپولي انظر:

Linda Ellis, The Cucuteni-Tripolye Culture: Study in Technology and The Origins of Complex Society,(Oxford, 1984).

[3]) يبيڤانوف وڤيدوسوڤ، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص14.

[4]) حول التماثيل الأنثوية في اوروپا التي تعرف باسم الإلهة-الام انظر: ڤ. گوردن تشايلد، التطور الاجتماعي، ترجمة: لطفي فطيم،(القاهرة: مؤسسة سجل العرب،1966)،ص110، 112، 138.

[5]) للمزيد من التفاصيل عن قرية مايكوب انظر:

Andrea L. Stanton(editor), Cultural Sociology of the Middle East, Asia, and Africa: An Encyclopedia,(Los Angeles, 2012), Vol: 1, P.5.

قادة قرى القوقاز الاغنياء يملكون كثيراً من العبيد من الذكور والاناث، وكان هؤلاء العبيد في حالة موت سيدهم يقتلون ويدفنون معه[1].

في روسيا الوسطى قامت حضارة القبور الدياميس ذات الغرف المدفنية البيضوية الشكل والحفر المدعمة بالأوتاد في الالف الثاني قبل الميلاد[2].

كانت تقاليد السكيثيين[3] الذين سكنوا في شمال مناطق البحر الاسود وغرب نهر الفولگا في الالف الاول قبل الميلاد تحتم دفن الزعماء ومعه زوجاته وعبيده وخيوله بعد قتلها، وكانت القبور تُغطى بأكوام عالية من التراب، وقد تم العثور اثناء التنقيب في هذه الاكوام على مدافن غنية فيها الكثير من الاواني الذهبية والفضية المُزينة بمشاهد من حياة السكيثيين، وكذلك الاسلحة الفاخرة ومعدات الخيل[4].

---

[1]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص15.

[2]) بيار غريمال وآخرون، تاريخ اوروبا العام،(بيروت: منشورات عويدات،2012)،ج1،ص80.

[3]) للمزيد من التفاصيل عن تاريخ السكيثيين انظر:

James William Johnson, ,"The Scythian: His Rise and Fall", in: Journal of the History of Ideas, Vol. 20, No. 2, 1959, pp.250–257.

[4]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص21-22؛ انظر أيضاً دراسة حديثة عن المقابر السكيثية في:

Larissa Bonfante, "The Scythians: Between Mobility, Tomb Architecture, and Early Urban Structures", in: TheBarbarians of Ancient Europe: Realities of Interactions,(Cambridge, 2011),PP.107ff.

2

القبائل السلاڤية

تؤلف السهول المكشوفة الممتدة من شرق اوروپا الى غرب اسيا المنطقة التي سكن فيها الشعب الروسي الذي هو جزء من الاقوام السلاڤية التي كانت اول الأقوام التي استقرت بشكل دائم في هذه المنطقة، فعلى الرغم من ان هذه المنطقة كانت تعرضت عبر التاريخ لأجتياح العديد من الأقوام كالسكيثيين(Scythians) والسرماتيين(Sarmatians)، والگوث(Gothe)، والهون(Huns)، والاڤار(Avars)؛ والخزر(Khazars)، إلا ان جميع هؤلاء كانوا عبارة عن قبائل بدوية وشبه بدوية متنقلة لم تعرف الاستقرار الدائم بل كانت تجوب السهول المكشوفة وتنتقل على طول الأنهار الصالحة للملاحة، لذا فإن السلاف هم أول من استقر بشكل دائم في هذه المنطقة[1].

اما السلاف فهم من القبائل الهندية-الأوروپية كانوا يتحدثون نمط من اللغات المشتقة من المجموعة اللغوية الاكبر المعروفة باسم البالتو-السلاڤية(Balto-Slavic)، وان السلاڤ اكبر مجموعة عرقية لغوية في اوروپا، ويتم تصنيف المجموعة السلاڤية اليوم الى ثلاث مجموعات هم، السلاڤ الشرقيون وهم: البيلاروسيون والروس والاوكرانيون؛ والسلاڤ الغربيون منهم: التشيك، والسلوڤاك، والصربيون والموراڤيون، والكاشبوس؛ والسلاڤ

[1]) هاشم صالح التكريتي، مقدمة في تاريخ روسيا الحديث: قيام الدولة الروسية وبداية توسعها،(بغداد: دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع،2015)،ص11.

الجنوبيـــون ومـــنهم البوشـــناق، والبولغـــار، والكـــرواتيين، والمقـــدونيين، والسلوڤيين[1].

اقدم اشارة الى القبائل السلاڤية جاءتنا من المصادر الرومانية التي تحدثت عـن الشـعوب السـلاڤية المبكـرة مثـل شـعب الڤينيتي(Venedi) الـذين كـانوا يقطنـون وسـط اوروپـا شـرق القبائـل الجرمانيـة، وغـرب القبائـل السـرماتية في القـرنين الأول والثـاني الميلادي[2]. وتشير المصادر انه بعد وفاة اتيلا زعيم الهـون في عـام 453م وانهيـار امبراطوريـة الهـون تسـارعت هجـرات السـلاڤ واتخـذت ثلاث مسارات، إذ ذهب السلاڤ الغربيون الى الالبا والاودر والڤستولا؛ في حين ذهب السلاڤ الجنوبيون الى شبه جزيرة البلقان؛ اما السلاڤ الشرقيون فقد ذهبـــوا الـــى الـــدنيپر واعـــالي الفولگـــا وضـــفاف بحيرتـــي ايلمـــين(ilmen) وپيپـوس(Peipus)[3]. ويظهـر السـلاڤ في السـجلات البيزنطيـة العائـدة للقـرن السـادس المـيلادي، كمـا هـو الحـال في روايـات المـؤرخ البيزنطي پروكوپيـوس القيصـري[4] الـذي عـاش في عهـد الامبراطـور جسـتنيان(527-565م) تحـت اسـم

---

[1]) Paul Barford, The Early Slavs: Culture and Society in Early Medieval Eastern Europe, (New York, 2001),P.1; Zbigniew Kobylinski, "The Slavs", in: The New Cambridge Medieval History, Edited By: Paul Fouracre,(Cambridge,2005),Vol: I, P.526.

جـــورج فرنادســـكي، تـــاريخ روســـيا، ترجمـــة: عبـــدالله ســـالم الزليتني،(ليبيـــا: المكتـــب الـــوطني للبحـــث والتطوير،2007)،ص18.

[2]) Tacitus, A Treatise on The Situation, Manners and Inhabitants of Germany,(Oxford, 2013), No.46.

[3]) التكريتي، مقدمة في تاريخ روسيا الحديث،ص12.

[4]) پروكوپيوس القيصري(Procopius of Casarea): ابرز مؤرخي القرن السادس الميلادي، والذي صاحب القائد البيزنطي بليزاريـوس(Blesarius) في حملاتـه الخارجيـة لاسـتعادة الإمبراطوريـة الرومانيـة الغربيـة مـن ايـدي الجرمان، وقد دون كل احداث هذه الحملات في عدة كتب تاريخية، اثنتين عن الحروب القوطية، واثنتين عن الحروب الفارسية، وكتاباً عن الحرب الوندالية؛ كما ترك لنا كتاباً عن المنشآت التي اقامها الامبراطور جستنيان

السلافينوي(Sclavenoi)[1]. ويصف المؤرخ البيزنطي پروكوپيوس السلاف بأنهم: "....طويلو القامة جداً وأقوياء وجبارون، أما لون بشرتهم وشعرهم فهو ابيض ناصع أو ذهبي..."، وفي الحروب كان السلاف يشاركون في المعارك ويقابل اغلبيتهم الاعداء بالتروس والرماح في ايديهم، وهم لا يرتدون الدروع ابداً على حد وصف هذا المؤرخ، وبعضهم لا يرتدي القمصان ولا الاردية، بل يلبسون سراويل مشدودة بزنار عريض على الافخاذ، وبهذا الزي يذهبون لمقارعة الاعداء[2].

كان السلاف الشرقيين اقدم اسلاف الشعب الروسي الكبير والشعبين الاوكراني والبيلوروسي، وكانوا اقوى فروع القبائل السلاڤية الغفيرة التي سكنت اراضي اوروپا الوسطى والشرقية من اقدم الازمان، وفي القرون الاولى بعد الميلاد كان السلاف الشرقيون مع غيرهم من القبائل يسكنون اراضي تمتد من جبال الكارابات غرباً حتى اعالي نهر اوكا والڤولگا شرقاً، ومن بحر البلطيق شمالاً حتى مصب نهر الدنيبر والدانوب جنوباً، وكانوا هم سكان هذه الاراضي الاصليين، فأسلافهم من القبائل المُزارعة والرعاة عاشوا في هذه الاراضي في الالفين الثاني والاول قبل الميلاد. وتتحدث قصة السنين الغابرة، وهي اقدم سجل روسي للحوادث، عن توزيع سكن السلاف الشرقيين، ويذكر واضع السجل اسماء اكثر من عشر قبائل سلاڤية كبرى، فقد عاش البولانيون

في الامبراطورية؛ اما اهم كتبه على الاطلاق فهو كتابه المسمى التاريخ السري والذي دون فيه ما لم يرق له عن عصر الامبراطور جستنيان، بل تحامل على الامبراطور نفسه وزوجته ثيودورا. انظر: طارق منصور محمد، قطوف الفكر البيزنطي،(القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع،2002)،ج1،ص12-13.

[1]) Kobylinski, The Slavs, P.524.

[2]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص33.

بجوار نهر الدنيبر قرب كييف، وكان جيرانهم الدريفلانيون والسيفيريانيون والراديميتشيون؛ في حين عاش الدريغوفيتشيون والكريفيتشيون اعلى منهم على نهر الدنيبر ايضاً؛ وفي اعالي نهر اوكا عاش الفياتيتشيون؛ اما السلوفينيون فقد عاشوا في منطقة بحيرة ايلمين على نهر فولخوف[1].

مارس السلاف الزراعة والرعي والتي تعد من المهن الرئيسة لديهم، اما القنص وصيد الاسماك وجمع العسل البري في الغابات فكانت من المهن الثانوية. في حين مارس السلاف الذين عاشوا في مناطق الغابات والسهوب الزراعة بعد الحراثة، فكانوا يحرثون حقولهم بمحاريث الخشبية ذات اسنان حديدية ونير خشبية مستعملين ماشية العمل من الخيل والثيران. اما في مناطق الغابات الاكثر شمالاً فقد مارس السلاف هناك الزراعة بعد قطع الاشجار وحرقها، وكان الفأس الحديدي والمعول اداتين للعمل عندهم، وكانوا يبذرون البذور في الاقسام المحروقة من الغابة ويجمعون محصولاً وافراً طوال سنين عدة. وقد زرع السلاف الدخن والجاودار والقمح والشوفان والشعير، فضلاً عن البازلاء والعدس، واللفت والبصل والجزر والملفوف، والكتان والقنب لصنع النسيج؛ وكانوا يربون الحيوانات الاليفة مثل الخيول والابقار والغنم والخنازير والدجاج والبط والوز، ويربون الكلاب والصقور للصيد. وكانت الحدادة وصناعة الفخار والنسيج من الحرف الرئيسة، ومن الحديد المصهور في اتونات الحدادة كانوا يصنعون السيوف والفؤوس والمعاول

---

[1]) بيبفانوف وفيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوفييتي،ص25.

Kobylinski, The Slavs, P.526.

والسكاكين والاسنان للمحاريث الخشبية. وكانت القبائل تتبادل البضائع فيما بينها، وأُستخدم الفرو الثمين مثل فرو السمور وفرو السنجاب كوسيلة للتبادل التجاري، بعد ذلك استعملوا قطع النقد الفضية المسماة بـ الگريفنا، وهي عبارة عن سبيكة من الفضة وزنها 200 غرام. وكانت القبائل والشعوب المجاورة للأراضي الروسية تتاجر مع السلاف، فأدت تلك التجارة الى اغتناء رؤساء القبائل السلافية. وفيما بعد عُثر في الحفريات قرب كييف وسمولينسك ونوفگورود وغيرها من المدن على كثير من قطع النقود البيزنطية والآسيوية الوسطى والعربية. ومنذ القرن العاشر الميلادي سكت روسيا قطعة نقد تشبه الدرهم العربي والنقود البيزنطية. واعتباراً من النصف الثاني من القرن الثالث عشر ظهرت سبيكة بقيمة نصف گريفنا حلت محل الگريفنا نهائياً في القرن الخامس عشر[1].

كان المجتمع السلافي المبكر مجتمعاً قبلياً نموذجياً لا مركزياً تم تنظيمه في مشيخات محلية، وقد تأثرت تلك القبائل بالثقافات المجاورة مثل البيزنطية، والخزرية، والڤايكنگ، والكارولينجية[2].

اما النظام الاجتماعي لدى السلاف فقد امتازت القبائل السلافية بوجود عوائل ابوية كبيرة كانت تدير اقتصاداً جماعياً في الاراضي التي كانت تزرعها، وعاشت بضع عوائل في قرى مشتركة، وفي القرى السلافية في القرون الثالث الى الخامس الميلادي كانت تنتشر البيوت الخشبية محاطة بأسيجة خشبية

---

[1]) المصدر نفسه،ص26-28.

[2]) Paul Barford, The Early Slavs: Culture and Society in Early Medieval Eastern Europe,(London,2001),PP.89-90.

عالية، وقريباً من هذه البيوت كانت تقع دار الحدادة ومخزن فيه طاحونة يدوية، وبناية كان الناس يشتغلون فيها بفتل الخيوط والنسيج وخياطة الملابس، وهناك كانت تقع حظيرة للمواشي. اما مسكن العائلة عند السلاڤ فكان على الاغلب مغروزاً في الأرض حتى منتصفه. فالسلاڤ كانوا يطمرون القسم الاسفل من المسكن في التربة، اما القسم العلوي فكانوا يبنونه من جذوع الاشجار، وكانوا يطلون الجدران من الخارج بالطين، ويخبرنا المؤرخ البيزنطي پروكوپيوس عن منازلهم قائلاً: "يعيشون في اكواخ حقيرة واقعة على مسافات بعيدة الواحد عن الآخر، وهم جميعاً كثيراً ما يغيرون محل سكناهم". وفي داخل المسكن كانوا يضعون المقاعد والاسرة والمواقد ذات المدخنة، وكانوا يخزنون احتياطي الحبوب والطحين في الحفر أو في الاوعية الكبيرة، وكانت الادوات المنزلية قليلة وتتألف من اواني فخارية وخشبية واباريق وادوات العمل الصغيرة. وكان السلاڤ في البداية يحرثون الارض سوياً، فالغابات المتاخمة للقرية والمراعي واماكن الصيد كانت مشاعة، وبعد ذلك صارت قطع الارض الصالحة للزراعة وادوات العمل والمواشي العامة ملكاً لعوائل منفردة، وكانت هذه العوائل تعيش في قرى صغيرة من 3-5 بيوت. وكانت عدة قرى تشكل جماعات متجاورة التي تسمى عند السلاڤ بالمير أو الفيرڤ، وفي هذه الجماعة كانت العائلة تملك فقط قطعة الارض التي تحرثها، اما المراعي والغابات فقد بقيت كالسابق ملكاً للجماعة[1]. ويشير الكتاب البيزنطيون ان السلاڤ كانوا منذ القدم يعيشون بحرية ولم يسمحوا لأحد بأن

---

[1]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص28.

يستعبدهم، وكانوا يتشاورون في اجتماعاتهم الشعبية المسماة باسم الـ فيتشه حول ما كان مفيداً لهم أو مضراً بهم، وكان كل فرد يستطيع ان يُعبر عن رأيه في مجلس الـ فيتشه، اما القرارات فكانت تتخذ اما بالأجماع أو بأغلبية الاصوات. ومع ظهور الملكية الخاصة ازدادت عند السلاف اللامساواة في الاملاك، فقد تميز الاثرياء، الذين سماهم مسجل الحوادث التاريخية بـ: "أفضل الرجال"، عن غيرهم من السلاف. وكان السلاف يستخدمون في اعمالهم العبيد من اسرى الحرب، غير ان العبودية عند السلاف ميزاتها الخاصة، فـ السلاف: "لم يستعبدوا الأسرى لأجل غير مسمى، بل كانوا يحددون مدة معينة لاستعبادهم ثم يطلقون سراحهم اذا ارادوا ان يعودوا الى اوطانهم او ان يعيشوا مع السلاف كأناس احرار"[1].

لا نعرف الكثير عن النظام السياسي للسلاف، لكن المؤرخ البيزنطي پروكوپيوس يذكر: "ان قبائل السلاف والآنتيين(وهم السلاف الذين عاشوا بين نهري النديستر والدنيبر) لا يقودها شخص واحد، بل تعيش منذ القدم تحت القيادة الشعبية..."[2]. وقد تطورت الطبقات الاجتماعية تدريجياً في شكل مشيخات وراثية محصنة شوهدت لأول مرة في منطقة السلاف الغربيين، وقد كان الزعيم مدعوماً من المحاربين الذين يدينون بمركزهم له؛ وعندما اصبحت القبائل قوية تم انشاء مراكز للسلطة الفرعية يحكمها رؤساء اقل؛ ويظهر ان الخط الفاصل بين المشيخات القوية ودول العصور الوسطى المركزية غير

---

[1]) المصدر نفسه،ص28-29، 33.

[2]) المصدر نفسه،ص33.

واضح؛ وكان اولئك الرؤساء يرتدون ملابس فاخرة ويركبون الخيول ويسافرون مع حشود من الجنود[1]. ويبدو ان اللامساواة الاجتماعية كانت السبب الرئيس لظهور هيئات سلطة الدولة عند السلاف، وكانت الحروب الدفاعية والهجومية، التي خاضها السلاف ضد جيرانهم، قد وحدتهم في اتحادات قبلية، وكانت هذه خطوة هامة في طريق ظهور الدولة، وكانت الحروب تجلب الثراء لوجهاء القبائل والعشائر اكثر فأكثر؛ واصبح قادة القبائل امراء، ويطلق عليهم لقب كونياز وهو قائد قوات المشاة الذي يمتطي ظهر الحصان. وكان لعصبة الامير حصة كبيرة من الغنائم، وتميزت هذه العصبة عن جماهير المحاربين أو المقاتلين فأصبحت سنداً لسلطة الامير. والعصبة تتألف عادة من فرق الخيالة المسلحة الدائمة، وكان الأمير على رأس العصبة. اما ما كان يدعى بالعصبة الاقدم فهي تتكون من اكثر اعضاء العصبة وجاهة، اولئك الذين كانوا يمثلون المستشارين المباشرين للأمير في الشؤون الحربية والإدارية، وعددهم ليس كبيراً. وكانت هذه العصبة الاقدم نواة مجلس دوما البويار(مجلس الاعيان) وهو اعلى دائرة للدولة الروسية بين القرن الخامس عشر الى السابع عشر الميلادي. اما العصبة الصغرى فكانت تتكون من المحاربين العاديين المكلفين ايضاً بتنفيذ مختلف الواجبات القضائية والإدارية، ومع تطور ملكية الارض الاقطاعية تحول افراد العصبة الى مالكين عقاريين وصاروا احد عناصر تشكيل طبقة الاقطاعيين المسيطرة[2].

---

[1]) Eric Goldberg, Struggle for Empire: Kingship and Conflict Under Louis the German 817-876(Conjunctions of Religion and Power in the Medieval Past),(Newyork,2006),PP.83-85.

[2]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص30-31.

3

الوثنية السلاڤية

ان المعلومات عن ديانة الشعوب السلاڤية حتى مجيئ المسيحية ليست متوفرة بما فيه الكفاية، ولم يبدأ العلماء بتوجيه انظارهم إليها قبل نهاية القرن الثامن عشر، بعد ان بزغ الوعي القومي لدى الكثير من الشعوب السلاڤية، واخذ يغلب على الثقافة الأوروبية الاهتمام بالثقافة الشعبية، والابداع الشعبي. لكن الشعوب السلاڤية حتى ذلك الوقت كانت قد دخلت في المسيحية، وتحقق لديها نسيان معتقداتها القديمة؛ ولم يتبقَ منها سوى بعض العادات والطقوس الشعبية، ذات الارتباط الدائم بهذه المعتقدات. ولهذا نجد في مؤلفات أواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر عن ديانة السلاڤ القدماء اكثر ما نجد الخيال الرومانسي والقليل من الوقائع التاريخية؛ ومن هذه الاعمال: **موجز المدون في الخيال السلاڤي** لـ ميخائيل پوپوف الذي نُشر عام 1768؛ و**معجم الخرافات الروسية** لـ ميخائيل تشولكوف عام 1780؛ و**ديانة السلاڤ القديمة** لـ گريگوري گلينكي عام 1804؛ و**الميثولوجيا السلاڤية والروسية** لـ اندريه قيصروف عام 1804؛ واكثرها نقداً وغنى في المحتوى هو: **اختصار المقال في ميثولوجيا السلاڤ الروس** لـ بيوتر ستروِيف عام 1815. وحتى في زمن اكثر تأخراً، في سنوات الستين من القرن التاسع عشر، ابدى المؤلفون-اتباع المدرسة الميثولوجية- الكثير جداً من المبالغات والأوهام الرومانسية، حين قاموا بالكتابة عن معتقدات السلاڤ القدماء؛ وافضل مثال هو: **النظرة الشعرية عند السلاڤ الى الطبيعة** لمؤلفه أ. ن.

اڤاناسـيف(1865-1869)؛ وقـد قـام بجمـع وترتيـب وتصـنيف مـادة واقعيـة كبيرة، غير ان استنتاجات المؤلـف لـم تكـن تسـتند دائمـاً على المعطيـات الواقعية، ولهذا كانت فرضياته عديمة الحجة وبدون اساس. وفي أواخر القرن التاسع عشر بدأت محاولات جدية للقيام بأبحاث معمقة على اساس المصادر المثبتة والمعلومات المحفوظة حول معتقدات الشعوب السلاڤية في المرحلة السابقة للمسيحية، غير انها لم تخلُ في الحقيقة من التنبؤ المبالغ فيه[1].

لا يُعرف الكثير عن الديانة السلاڤية قبل المسيحية سواء في بلغاريا أو كييڤ أو لدى الروس، فالمسيحية دمرت العديد من سجلات الديانة القديمة، وان كانت لا تزال بعض الأدلة متوفرة، رغم ان بعضها مشكوك فيه[2]؛ لكن بشكل عام تعتمد دراسة معتقدات السلاڤيين ما قبل المسيحية على المصادر التالية:

1.المعلومات المدونة كتابياً والتي لها علاقة بالقرون السادس الى الثاني عشر الميلادي.

2.المكتشفات الأثرية.

3.بقايا المعتقدات والطقوس القديمة التي بقيت محفوظة حتى وقت غير بعيد، وتم تسجيلها في الادبيات الاثنوغرافية.

---

[1]) سيرغي أ. توكاريف، الأديان في تاريخ شعوب العالم، ترجمة: احمد م. فاضل،(دمشق: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع،1998)،ص219.

[2]) S. H. Cross, "Primitive Civilization of the Eastern Slavs", in: American Slavic and Eastern European Review, Vol:5m Issuse:1-2, 1946, PP.77-78.

ان الصنفين الأولين من المصادر جداً شحيحين، اما الأخير فيتميز بصعوبات كبيرة، بمعنى ايجاد الجواب على السؤال: اي من مدونات الطقوس والمعتقدات في القرنين التاسع عشر والعشرين تعود الى ما قبل المسيحية، وايهما ظهر فيما بعد؟ ولكن رغم كل صعوبات الدراسة والبحث يمكن اعتبار السمات الملموسة لديانة السلاف القديمة اصبحت مقرة وقائمة. فإذا كانت مساعي العلماء السابقين متجهة الى تكوين بداية ما لدين واحد يدين به كافة السلاف، فإن الباحثين المعاصرين ينتقدون النظريات القديمة ويرون ان السلاف القدماء لم يكونوا موحدين في كل تاريخهم لا في الميادين السياسية ولا الاقتصادية، وتمكنوا بالكاد من ايجاد آلهة عامة وعبادات عامة؛ ويبدو ان كل قبيلة كانت لديها وسائل عبادتها الخاصة، وحتى لكل عشيرة سلالية ادواتها؛ غير ان من الطبيعي ان تكون هناك وسائل موحدة أو مشتقة وقريبة من بعضها لدى القبائل المختلفة[1]؛ وان كان البعض ما زال يعتقد ان الديانة السلاقية المبكرة كانت موحدة نسبياً[2].

حفظت لنا المصادر الكتابية أسماء آلهة السلاف القديمة، والتي كان لبعضها، وقد فُقد فيما بعد، كما يبدو، علاقة ما بالاقتصاد الزراعي، وان منها آلهة للشمس، ويلوح ان عبادة الأرض كانت أيضاً موجودة، رغم عدم توفر دليل مباشر يؤكد ذلك[3].

---

1) توكاريف، الأديان في تاريخ شعوب العالم،ص220.

2) Francis Dvornik, The Slavs: Their Early History and Civilization,(Boston,1956),P.47.

3) توكاريف، الأديان في تاريخ شعوب العالم،ص225.

كان السلاف الشرقيون وثنيين، فقد كانت ديانتهم حيوية، ومجسمة، ومستوحاة من الطبيعة[1]. كما كان للسلاف آلهتهم الخاصة بهم، وبعد ان شرعت القبائل السلافية تماشياً مع الانقسام الطبقي في الانتقال نحو الدولة كنمط للحياة، توفرت في الوقت نفسه شروط تحول العبادات القبلية الى قومية أو رسمية لعموم الدولة؛ وأول من قام بمحاولة خلق پانثيون عام للدولة وعبادة رسمية عند السلاف الشرقيين كان ڤلاديمير امير كييف، فحسب المدونات التاريخية، قام عام 980م بجمع كافة تماثيل الآلهة المختلفة فوق واحدة من هضاب مدينة كييف، وأمر بالصلاة لها، وتقديم القرابين[2]: "بدأ الامير ڤلاديمير في كييف وحده منفرداً، وأقام الأوثان فوق التل خارج الفناء: پيرون الخشبي ورأسه من فضة وفمه من ذهب؛ وخوروس؛ ودايزبوگ؛ ستريبوگ، وسيمورگ ، وموكوش. وشرعوا يقدمون لهم القرابين، وينادونهم آلهة، واصطحبوا إليها أبنائهم وبناتهم"[3]. ويفترض بعض الباحثين ان الآلهة الڤلاديميرية كانت منذ البدء آلهة اميرية أو متقاربة وليس لعبادتها جذور وسط الشعب، ولكن هذا احتمال ضعيف؛ فإله الشمس خوروس، ودايزبوگ وغيرهما، وإلالهة الأنثوية موكوش، كانت كما يبدو آلهة شعبية، وكل ما فعله

---

[1]) Cross, Primitive Civilization of the Eastern Slavs,P.83.

[2]) توكاريف، الأديان في تاريخ شعوب العالم،ص227.

[3]) أ. س. ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات، ترجمة: حسان ميخائيل اسحاق،(دمشق: منشورات علاء الدين للطباعة والنشر،2009)،ص97؛ ميرتشيا الياده، تاريخ المعتقدات والافكار الدينية، ترجمة: عبد الهادي عباس،(دمشق: دار دمشق للنشر،1987)،ج3،ص34.

Alison Hilton, Russian Folk Art,(Indiana, 1995),P.137.

ڤلاديمير كان محاولة جعلها بشكل ما آلهة رسمية لإمارته، كي يحصل بهذا على الوحدة الايديولوجية[1].

وقبل ان نتواصل في دراسة الآلهة السلاڤية لابد من ملاحظة جانب مهم من المعتقدات السلافية وهو المقطع بوگ الذي يظهر في بعض الآلهة السلافية مثل: دايزبوگ، ستريبوگ. وبوگ كلمة سلاڤية اصلية وقديمة، ومشتركة في جميع اللغات السلاڤية، وتمت أيضاً بصلة القرابة للكلمة الإيرانية باگا، والهندية القديمة بهاگا؛ وان المعنى الرئيس لهذه الكلمة، كما يُستدل من معطيات اللغة هو: السعادة، والنجاح. وقد أخذت التصورات النجاح، والسعادة، والحظ مع مرور الزمن تأخذ تشخيصها في نموذج روح ما تهب التوفيق والنجاح؛ وقد حدث في بداية القرن الخامس عشر في موسكو اثناء حفل زفاف ملكي ان قال احد الوجهاء الإقطاعيين لآخر، وقد اختلف معه بسبب مكان الجلوس: "ان إله أخيك في القبعة(اي ان سعادته في القبعة التي ترتديها زوجته) في حين ليس لك إله في القبعة"، وكان شقيق الإقطاعي الثاني زوجاً لشقيقة القيصر[2].

كانت تماثيل الآلهة السلاڤية مصنوعة من الخشب، ولذلك لم تبق منها شيء، ولكن في عام 1848 تم العثور على تمثال سلاڤي من الحجر يعود للقرن التاسع الميلادي، لا يزال التمثال محفوظاً في متحف كراكوڤ، ويمثل هذا التمثال مجمعاً كاملاً من الآلهة، ويعطي تصوراً عن رؤية السلاڤ لبنية

---

[1]) توكاريف، الأديان في تاريخ شعوب العالم،ص227-228.

[2]) المصدر نفسه،ص226

العـالم، فـإلى جانـب پيرون احتـوى التمثـال الربـاعي الابعـاد على ثلاثـة آلهـة آخـرين، ويمثـل هـؤلاء كلهـم عائلـة إلهيـة واحـدة؛ اذ يقـدم التمثـال صـور لآلهـة مختلفـة رُسـمت وفـق نظـام محـدد، ووفـق تراتيبيـة مـن الاعلى الى الادنى، ففي الجزء الاعلى من التمثال صورت إلهات ذات قرن وخاتم يد؛ كما ظهر إله مع رمح وحصان وإلـه مع رمـز الشـمس؛ وقـد قُسـمت الآلهـة في هـذا التمثـال الى طبقـات، فالطبقـة الاولى منـه تمثـل اكبر الآلهـة، وهي آلهـة السـماء، والطبقـة الوسـطى هنـاك صـور لرجـال ونسـاء يمسـك بعضـهم بيـد بعـض، وفي ادنـى الطبقـات صـورة إلـه عجـوز سـاجد على ركبتيـه، وهـو يظهـر مـن الامـام، ومـن الجانـب. وهكـذا يحمـل هـذا التمثـال الحجـري معطيـات لا عـن الآلهـة والسـلم التراتيبي فقـط، بل عـن بنـاء العـالم المحيط أيضـاً. اما الآلهـة، فـإن تلك الإلهـة ذات القـرن، وهـو رمـز الـوفرة، فهي الإلهـة موكـوش(Mokoš) إلهـة المحصـول؛ والإلهـة الأخـرى التي تحمـل الخـاتم، وهـو رمـز الـزواج، فهي الإلهـة لادا(Lada)، إلهة الاعراس، وصور في المكان عينه الإله پيرون(Perun) برمح على جواده؛ اما الإلـه الـذي تحمل ملابسـه رسـم يرمـز الى الشـمس فهـو الإلـه دايزبـوگ(Dažbog) رب نـور الشـمس، وهـؤلاء كلهـم الآلهـة العليـا أي آلهـة السـماء. وثمـة إلـه ظهـرت صورته في اسـفل التمثـال ويبدو راكعاً على ركبتيه انه ڤيليس(Veles) إلـه الأرض والعـالم الاسـفل. وحسـب المعطيات المتـوفرة يبـدو ان السـلاف القـدماء تصـوروا العـالم المحيط بهم مؤلفـاً مـن ثـلاث مسـتويات: في الأعلى اي في السـماء يقـيم الآلهـة العظـام؛ وفي الوسـط يعيش البشـر، وفي الاسـفل يقـع عـالم الامـوات[1].

---

[1]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص98-99.

ووضع السلاف تماثيل الآلهة المصنوعة من الحجر أو الخشب في معابد أُطلق عليها اسم كوميرنيا، وكانوا يقدمون الى هذه الآلهة القرابين من الحيوانات والطيور والاضاحي البشرية احياناً، ويشير المؤرخ البيزنطي پروكوپيوس ان السلاف كانوا يعبدون الآلهة و: "يقدمون القرابين لها جميعاً"؛ وكان الكهنة-السحرة والعرافون يقومون بإداء الطقوس الدينية[1]، وهو امر سنفصل به لاحقاً. ويخبرنا پروكوپيوس ايضاً ان السلاف كانوا: "يعبدون الانهار والحوريات ومختلف الآلهة الأخرى"[2]. وقد عبد السلاڤيون الهتهم المحلية، كما اقتبسوا أيضاً آلهة الاسكيثيين والفرس، اما ابرز الآلهة السلاڤية فهي:

1.الإله دايڤيس(Dieves).

اقدم الآلهة السلاڤية، فهو إله السماء، وسلف كل شيء موجود، وهو بلا شك يعود بأصله الى الإله الهندو-اوروبي الذي يرد في النصوص الهندية القديمة ديو/ديڤا اي سماء، وبالتالي يمكن ان يكون له ارتباط بالإله الاغريقي زيوس(في الاصل ديوس). يطلق عليه اسم ديبيستيڤس(Debestevs) في المناطق المجاور لـ لاتڤيا(Latvia)، إذ تم تصويره كملك وسيم، يرتدي رداءً فضياً، وله حزام وسيف، ويعيش على تل مرتفع، في السماء في ابعد منطقة في العالم، في مملكة مغلقة لا يتم الدخول اليها إلا من خلال ثلاث بوابات فضية، وداخل جدران مملكته هناك قصره الريفي، ومملكته هذه محاطة بغابة لا يمكن اختراقها، وكل يوم يغادر قصره الريفي بوساطة عربة من ذهب أو على زلاجة

---

[1]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص32-33.

Hilton, Russian Folk Art,P.140.

[2]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص33.

من نحاس؛ وهذا الاله يختص بخصوبة الارض، ويحفز نمو المحاصيل ويدوس الحشائش الضارة بأقدامه أو تحت عجلات مركبته وتساعده بذلك الإلهة لايما (Liama)؛ وهو المسؤول عن مصير الرجال. وعلى الرغم من انه اقوى آلهة السلاف، إلا انه ليس ملك الآلهة، بل استلم هذا الدور الإله پيرون[1].

2.الإله رود(Rod).

ليس هناك وضوح حول معنى الكلمة الدينية الميثولوجية رود، وربما تعني: اصل، عشيرة، ولادة، ويرى بعض الباحثين انها تعني ارواح الأسلاف، في حين يرى آخرون انها تعني: ارواح الولادة والخصب. ورود إله المطر والخصوبة القديم، وهو يطابق الإله سڤانتوڤيت(Svatovit) كبير الآلهة لدى شعوب البلطيق وزوجاته يدعين الـ روزنات(Rozhanitsy)[الزوجة روزانيكا/Rozanica]، وقد اشارت المواعظ المسيحية الى هذا الإله والروزنات: "أخذ الهيلينيون يقيمون ولائم لـ رود والـ روزنات، وكذلك فعل المصريون، والرومان، وقد وصل هذا الإله الى السلاف، فأخذ هؤلاء يقيمون الولائم لـ رود والروزنات قبل پيرون إلههم". وكان رود في الاصل إله المزارعين، على الرغم من ان صفاته ذهبت ابعد من هذا الدور؛ وبشكل عام اصبحت الوهيته عالمية، فهو إله للسماء والمطر والصاعقة والحياة، وهذه الصفات ارتبطت به قبل ان تظهر عبادة پيرون. وكانت المواعظ المسيحية لاحقاً تُلح على طريق الحق: "للكل خالق واحد، وهو ليس رود". لقد كان رود إلهاً خالقاً، وتشير الاساطير السلاڤية الى

---

[1]) Mike Dixon-Kennedy, Encyclopedia of Russian and Slavic Myth and Legend,(California,1998),P.67-68.

ان رود خلق الإنسان عن طريق رش الغبار أو الحصى على سطح الارض، وقد ولد منه كل شيء. ورود هو سيد الأرض وكل ما هو حي، ولاحقاً انتهى منصب رود كزعيم مجمع الآلهة السلافي لصالح الإله پيرون، واصبح مجرد إله يمثل حامياً للمنزل؛ اما الـ روزنات فهن من كن يمنحن الخصب، فهن خازنات الحياة، والحياة هي الماء قبل كل شيء، لذلك تخيلوا الـ روزنات في صورة إلهات سماويات يمنحن المطر، ومن البديهي انهن كن نصيرات الأمهات والفتيات والاطفال الصغار؛ وبعد ان اعتنق السلاف المسيحية تحولت الروزنات شيئاً فشيئاً الى والدة الإله(مريم)؛ وقد كان السلاف يحتفلون بعيد رود والـ روزنات بإقامة الولائم الشعائرية في يوم الاعتدال الشتوي، وفي موسم جني المحصول الخريفي، فيقدمون للإله والإلهات الخبز، والعسل، واللبن المصفى، والفطائر[1].

3.**الإله پيرون(Perun)**.

[وقد كُتب اسمه ايضاً بعدة صيغ: (پيروم/Perom)؛(پيرون/Peron)؛(پيكر/Pikker)؛(پيورون/Piorun)؛(پايرون/Pyerun)] هو زعيم المجمع الإلهي كله، وإله حامية كييف(Kiev)، وإله الصاعقة والبرق والرعد والحرب، وكان مرتبطاً بالنشاط الزراعي، ويبدو ان اسمه يعني الصاعق؛ ويجسد الليل في الاساطير الروسية، وهو الذي يحمل الشمس اسيرةً، وهو إله معروف لدى الشعوب الهندية-الأوروبية الأخرى، فهو

---

[1]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص101؛

Kennedy, Encyclopedia of Russian and Slavic Myth and Legend,P.233.

عنـد الجرمـان[1] ثـور(Thor) أو دونـار(Donar)، وعنـد اللاتفيـين، والليتـوانيين، والبروس[2] هـو الإلـه الأعلى پيركونس(Perkunas)[3]؛ وبما انه إلـه هنـدو-اوروبي لـذا ربمـا كان اصـل اسـمه يعـود مـن الكلمـة پارانجانايا(Paranjanya) الهنديـة، والكلمـة تمثـل لقـب لـرب العاصـفة الهندوسـي انـدرا(Indra)؛ مـع ذلـك هنـاك افتـراض ان هـذا الإلــه جــاء مـن طقـوس محليـة في روسـيا تحـورت حـول الصـاعقة، واسـمه مـرتبط بشـجرة البلـوط والغابـة؛ ويبـدو ان شـجرة البلـوط كانـت شـجرة الإلـه پيرون، ويقـال انـه في نوڤگـورود(Novgorod) كانـت هنـاك صورة لـ پيرون على شكل انسان يحمل بيده حجر الرعد، وكانت نيران البلـوط توقـد على شـرفه لـيلاً ونهـاراً، واذا انطفـأت يـدفع المسـؤولـون عنهـا حيـاتهم ثمنـاً لـذلك، ويبـدو ان پيرون مثـل زووس الاغـريقي وجـوبيتر الرومـاني هـو كبير الآلهـة لـدى شـعبه، فهـذا المـؤرخ البيزنطي پروكوپيـوس يخبرنـا عـن هـذا الإلـه: "يعتقـد السـلاڤيون ان احـد الآلهـة، صـانع البروق، هـو وحـده سـيد الاشـياء كلهـا، وانهـم يذبحـون لـه الثيران وكل الاضـاحي...". وپيرون السـلاڤي يظهـر في التقاليـد المحليـة كمقاتـل رأسـه مـن الفضـة ولـه شـارب مـن الـذهب، وهـو سـيد العـالم، عـاش في

[1]) اصـل الشـعوب الجرمانيـة غـامض، خـلال عصـر البرونـز الاخير يُعتقـد انهـم سـكنوا جنـوب السـويد، وشـبه الجزيرة الدنماركيـة، وشـمال المانيا؛ وفي ايام يوليوس قيصر وصل الجرمان غـرب نهـر الـراين وواصلوا هجـراتهم نحو الجنوب الى نهر الدانوب؛ ويعود اول صدام لهم مسلح لهم مع الرومان كان في القرن الثاني قبل الميلاد. انظر:

Encyclopedia Britannica, Germanic Peoples.

[2]) اللاتفيون والليتوانيون: من اسرة اللغات الهندية-الاوروبية، يعيشون على الشـواطئ الجنوبيـة الشـرقية لبحـر البلطيق؛ وقد اطلق عليهم المؤرخ الروماني اكيتوس اسم آيستي (Aestii). انظر:

Encyclopedia Britannica, Balt People.

[3]) حول الإله پيركونيس انظر:

Kennedy, Encyclopedia of Russian and Slavic Myth and Legend,P.216-217.

السماء ويجوبها في مركبة ملتهبة تجرها ماعز ضخمة تدعى بيلي(Billy) أو على صهوة حصان، والرعد صوت مركبته؛ وله سيطرة مطلقة على الطقس، وعندما يغضب يسبب العواصف الرعدية، ويرسل البرق، ويطلق سهامه-الصواعق؛ فتصيب سهامه الإنسان، لذا اعتقد السلاڤ ان ذلك لا يقع إلا اذا كان إله الرعد يريد ان يجندل روحاً نجساً سكن جسد الشخص المعني، ولذلك حرموا بكاء على من تقتلهم صواعق پيرون، لأنهم بذلك تحرروا من الدنس؛ كما عُدت صواعق پيرون رمزاً للخصوبة لأنها تُيقظ الارض في فصل الربيع من سكون الشتاء القاتل. ويبيت إله الرعد في جذع شجرة مقدسة؛ وكإله للجنود يحمل پيرون على كتفه القوس والسهام، وبيديه الهراوة الثقيلة أو الرمح والفأس، وهو الذي يمنح النصر للجنود. ولم يكن الإله پيرون الإله الرئيس بين آلهة السماء فقط، بل كان السلف الأول الذي خرج منه السلاڤ، وهو شفيع الأمراء، وكان قد شاع بين السلاڤ عرف تحريم النطق باسم الإله علانية، ولذلك أطلقوا على پيرون اسماء مختلفة منها اسم دوندول أو دودول أو دونير. وقد قدموا إليه الذبائح من الحيوانات مثل: الحصان والثور والماعز، ويشير پروكوپيوس الى ذلك: "يقدمون له الثيران أضحية، ويقومون بالطقوس الدينية الاخرى..."؛ كما قدموا له نباتات مثل البلوط والتفاح البري، وأقاموا الصلوات له في ادغال شجرة البلوط أو تحت شجرات بعينها؛ كما قُدمت له الاضاحي البشرية، واحد الامثلة المسجلة والمهمة ان احد الڤايكنگ الذي كان يعيش في كييڤ تم اختياره من قبل الامير ڤلاديمير الاول ليكون اضحية الى پيرون بعد غارة عسكرية ناجحة!!، ذلك الڤايكنگ، وكان مسيحياً، رفض ان

يكون نذراً لإله وثني، لكنه مع ذلك تم التضحية به كما امر ڤلاديمير. كما ان پيرون قد تم تكريمه بشكل خاص في اوقات ما قبل المسيحية في مهرجان الربيع حيث كانت العذارى الصغيرات يرقصن حتى الموت على شرفه، وهي ممارسة اصبحت فيما بعد مصدر إلهام لطقوس الربيع في ستاراڤينسكاري؛ وبمرور الوقت، تم تعديل الطقوس لتصبح رقصة احتفالية التي شاركت فيها جميع عذارى قرية ما أو مجموعة قبلية. اما معابده فقد شيدوها فوق الهضاب والمرتفعات، وكانوا يشعلون هناك نيراناً، فالنار عُدت طعنة إله الرعد، وكان يوم الخميس مكرساً للإله پيرون، حتى انهم دعوه أحيانا باسم خميس. كما كان لـ پيرون اسماء أخرى، فقد دعوه پراڤي(Pravi) اي الحق، لأنه كان تجسيداً للعدالة العليا، وثمة في الخرافات والحكايات الروسية اسم پراڤدا(Pravda) اي الحقيقة. هذا وقد دُعي إله الرعد عن السلاڤيين الغربيين پروڤي(Provi). وكانت ترتبط به طقوس انزال المطر، اذ تقوم فتاة عذراء مغطاة بالزهور بالدوران في حلقة وتدعو ان ينزل عليها ندى پيرون؛ واسم پيرون السلوڤاكي هو پيروم(Perom) وتعني الكلمة حرفياً اللعنة. وفي عام 988م، عندما اتخذ ڤلاديمير قراره السياسي بقبول المسيحية كدين رسمي لمملكته، امر بتدمير جميع الاصنام الوثنية، ومن ضمنها تمثال پيرون الذي كان واقفاً خارج قصره في كييف وكان يظهر وهو على حصان، وقد ضُرب بقضيب معدني، واخيراً أُلقي به في نهر دنيپر؛ ومن اجل انهاء عبادة هذا الإله والقضاء على الوثنية تشير السجلات الرسمية في نوڤگورود ان تمثال هذا الإله كان يُجلد سنوياً، لكن يبدو ان الاجراءات الكنسية لم تنجح إذ ان صفات هذا الإله

سـرعان مـا انـدمجت مـع القديسـين المسـيحيين لاسـيما ايليـا كمـا سـنلاحظ لاحقــاً[1]؛ ومـــن المعـــروف ان الشخصـــية المؤنثـــة للإلـــه پيـــرون هـــي پيرپيرونا(Perperuna) وهي الإلهة العذراء التي تستدعي المطر[2]؛ كما ترتبط به أيضاً الإلهة زرويا(Zroya)، وهي إلهة الحرب العذراء[3].

4. الإلهة موكوش(**Mokoš**).

عبد السلاف أيضاً الأم العظمى موكوش(Mokoš)، والدة كل شيء حي، وكانت هذه إلهة الخصب، ولذلك ارتبطت بالماء، لذا نجد السلاف يسجدون لها عند الينابيع، وكانوا يرمون إليها في الينابيع غزولاً، وقد عُدت موكوش حارسة الاعمال النسوية، أو بتعبير آخر: الإلهة الحامية للعمل النسائي، فهي غزّالة ونساجة. تظهر هذه الإلهة في كثير من الاساطير السلاڤية تتجول في الليل على هيئة امرأة، وتزور المنازل، وتجز فروة الغنم بنفسها، ولهذا فإن الناس يضعون فروة الخروف ليلاً الى جانب الموقد استرضاءً للإلهة. وهناك اعتقاد ما زال قائماً في المناطق الروسية الشمالية يشير الى ان تساقط صوف الخرفان

---

[1]) بيبڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص33؛ ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص97-98؛ توكاريف، الأديان في تاريخ شعوب العالم،ص225؛ آرثر كورتل، قاموس اساطير العالم، ترجمة: سهى الطريجي،(دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع،2010)،ص150؛ امام عبد الفتاح امام، معجم اساطير وديانات العالم،(القاهرة: مكتبة مدبولي،1995)،ج3،ص156؛

V. P. Darkevich, "Topor Kak Simvol Peruna V dervnerusskom inzychestve", in: Sovetskaia arkheologiia, no.4, 1961, PP.91-102; Mercia McDermott, Bulgarian Folk Customs,(London, 1988),P.14; Hilton, Russian Folk Art,P.137; James Frazer, The Golden Bough,(New York,2002),P.161; Kennedy, Encyclopedia of Russian and Slavic Myth and Legend,P.77; 217-218.

[2]) Kennedy, Encyclopedia of Russian and Slavic Myth and Legend,P.217.

[3]) Ibid,P.322.

يعني ان: "موكوش تقوم بجزه"؛ كما يقول اعتقاداً آخراً ان: "موكوش الحارسة العظيمة تجول في المنازل وتقلق النساء الغزّالات"[1].

5.الإله ڤيليس(Veles)/ڤولوس(Volos).

الإله الرئيس في العالم الاسفل، بيد اننا لا نستطيع ان نقول انه كان إله قوى الشر الظلامية، فوظائفه متنوعة جداً، ولم يكن رب عالم الاموات فقط، بل كان يملك قوة سحرية عدة منها الجبروت والسلطة. فهو أيضاً إله الحرب. وقد كان ڤيليس شفيع الحكماء والشعراء، كما عُد حامي عالم الحيوانات، فهو إله الوحوش الضارية والقطيع، وإله الثروة الفردية، ولذلك تخيلوه في صورة وحش أوبر. وليس عبثاً ان كان الكهنة الوثنيون يرتدون جلود الحيوانات وفراؤها الى الخارج. لقد كان الآلهة يتغيرون عند الشعوب كلها مع تغير نمط حياتها، فعندما تقدمت تربية الحيوانات عند السلاف، صار ڤيليس حارس الحيوانات المنزلية، وراعي الماشية، وإله القطيع، ومع تقدم الزراعة بات إله العمل الزراعي والمحصول. وعرف السلاف تقليداً يتركون بموجبه جزءً من الارض الزراعية لا يحصدون سنابلها باعتبارها: "لحية للإله ڤيليس". وقد شاعت عبادة ڤيليس عند السلاف شيوعاً واسعاً، وهو ما انعكس في تسميات قراهم مثل: ڤيليسوڤو، وڤولوسوڤو، وڤولوتوڤو. ظل هذا الإله يُعبد في بعض مناطق روسيا حتى القرن التاسع عشر الميلادي، وقد اصبحت الجوانب الشيطانية في هذا الإله توصف بها الشياطين، اما الجوانب الجيدة فأصبحت

[1]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص102؛ توكاريف، الأديان في تاريخ شعوب العالم،ص225؛ امام، معجم اساطير وديانات العالم،ج2،ص426؛

Hilton, Russian Folk Art,P.142.

جزءً من صفات القديس بليز(Saint Blaise) الذي عاش في القرن الثالث الميلادي، وهو القديس الذي يرعى الاطباء، ويسمى هذا القديس في روسيا ڤلاسي(Saint Vlasii)، وكان الناس يتضرعون إليه بصلوات تشبه الصلوات القديمة التي كانوا يتوجهون بها الى ڤولوس: "ايها القديس ڤولوس، هب لنا الحظ الطيب، بحيث تسمن ابقارنا وثيراننا"؛ وظلت بعض الطقوس التي: "يُعقص فيها شعر ڤولوس" قائمة حتى القرن التاسع عشر، حيث يعقد الفلاحون زمن الحصاد آخر المحصول على شكل عُقدة. وقد رسم الفنانون الروس لوحات يصورون فيها تقديم القرابين الى الإله ڤولوس، حيث يظهر الفلاحون وهم يذبحون حصاناً تحت اقدام تمثال ضخم لهذا الإله[1]؛ وهنا علينا ان نتذكر جيداً ان اضحية الحصان كانت موجودة أيضاً في التقاليد الشامانية في سيبيريا.

6.الإله ايرسيڤورش(Erisvorsh).

إله للعواصف وقد عُبد بشكل رئيس لدى التشيك، وعُرف باسم ڤارپوليس(Varpulis) كذلك، وربما عبده الروس نظراً لكونه يظهر في التقاليد السلاڤية مرافقاً لـ پيرون[2].

---

[1]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص99-100؛ توكاريف، الأديان في تاريخ شعوب العالم،ص225؛ امام، معجم اساطير وديانات العالم،ج3،ص417؛

Marija Gimbutas, "The Lithuanian God Velnian", in: Myth in Indo-European Antiquity, edited By: Gerald J. Larson,(Berkeley,1974),PP.87-92; McDermott, Bulgarian Folk Customs, P.14, 65; Kennedy, Encyclopedia of Russian and Slavic Myth and Legend,P.308.

[2]) Kennedy, Encyclopedia of Russian and Slavic Myth and Legend,P.80, 291.

7.الإلهة ياگا(**Yaga**) أو بابا ياگا(**Baba Yaga**).

لم يكن ڤيليس وحده يحكم العالم الاسفل، بل كان هناك عدد غير قليل من آلهة الظلام اهمهم إلهة تدعى ياگا(Yaga) أو بابا ياگا(Baba Yaga)، اي الكابوس والمرض والخوف والغضب، واصبحت لاحقاً غولة من اكلة لحوم البشر في الأساطير الروسية، تخطف الأطفال وتقوم بطهيهم واكلهم، وهي تعيش عادة في كوخ يقف على قدمي دجاجة أو طير، يقع في اعماق الغابة، والحائط حول كوخها مصنوع من العظام البشرية، وتتحدث الاساطير عن بابا ياگا منها ان زوجة اب طلبت من الغولة ان تأكل ابنة زوجها، وحاولت الغولة ان تصل الى الفتاة، غير ان مشطاً سحرياً في طريقها انقذ الفتاة وجعل من المستحيل على بابا ياگا ان تصل إليها؛ وقد تجسد كثير من سماتها في الشخصية الخرافية، ياگا الساحرة. وكانت ياگا بالأصل ربة الطبيعة البرية، ونصيرة الساحرات وحاميتهن، ولا تقيم ياگا في العالم الاسفل فقط بل تمد يد العون لقوى الشر والظلام، ولها ابنة تدعى ياگيشنا تختبئ دوماً في غياهب الغابات. وتبدو ياگا شنيعة المظهر، فهي بساق واحدة، وعين واحدة وبأنف طويل اشعر[1].وما عدا تلك الآلهة هناك أبطال وقوى اسطورية آخرون في مملكة العالم الاسفل ومنهم: كاشيه الخالد، وعائلة الگورينتشيين التي يرأسها الثعبان

[1]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص99؛ امام، معجم ديانات واساطير العالم،ج1،ص162.
Marija Gimbutas, "Baba Yaga", in: Encyclopedia of Religion, Editor: Lindsay Jones,(New York,2005),Vol: 2, P.727.

گـورنتش نفسـه، والفـارس گويرنيـا حامـل قـوة الشـر العضـلية، والسـاحرة گورينيكا[1].

8.الإلهتان لادا(Lada) وليليا(Lyale).

عبد السلاف إلهتين أخريين أماً وابنتها، وكن الهتين للخصب، والرخاء، وازدهـار الحيـاة في الربيـع، وهمـا الإلهتـان لادا(Lada) وليليـا(Lyale)، وقـد كانـت وظائف هاتين عديدة، فالربة لادا إلهة الزواج، ومسؤولة عن نضج المحاصيل، والـوفرة، وكانـت ذبيحتهـا ديكـاً؛ امـا ليليـا ابنـة لادا فقـد كانـت حارسـة الفتيـات العزباوات، وكانت إلهة الخضار والربيع[2].

9.الإلهة مورينا(Morina).

إلهـة كانـت تمكـث في عـالم الأمـوات بيـن وقـت وآخـر وأسـمها مـأخـوذ مـن كلمة مور اي الموت، ولكنها كانت إلهة الخصب في الوقت نفسه[3].

10.الإله دايزبوگ(Dazbog) أو ياريلو.

معنى اسمه الإله الواهب، وهو الإله الرئيس بين الآلهة الشمسية، فهو إلـه حـرارة الشـمس، وعـد إلهـاً للضـوء، والمسـؤول عـن نضـج المحصـول ومعنى اسـمه: إلـه الحـر، ودعـوه أيضـاً: الملـك-الشـمس، أو ابـن سـڤاروگ(Svarog)، وشقيق إله النار. وتقول الأسطورة السلاڤية ان الإله سڤاروگ تعب من حكم الكون، فتنازل عنه لأبنيه: إله الشمس، وإله النار، وكان إله الشمس دايزبوگ

---

[1]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص99.

[2]) المصدر نفسه،ص101-102.

McDermott, Bulgarian Folk Customs. 14.

[3]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص100.

يعيش في الشرق في أرض الصيف الأزلية، في قصر ذهبي، يخرج منه كل نهار في عربة تجرها جياد بيضاء تنفث لهباً، وتقول بعض الأساطير ان الجياد ثلاثة، وقيل اثنى عشر حصاناُ، اما العربة فهي من الذهب المرصع بالماس، وللجياد البيضاء عرف ذهبي. ويعتقد الصربيون ان إله الشمس ملك شاب يعيش مع فتاتين جميلتين واحدة منهما اورورا الفجر، والثانية اورورا المساء، وهما شقيقتان تصحبهما نجمتان هما نجمة الصباح، ونجمة المساء، ويقول الروس عن اصلهم انهم احفاد دايزبوگ إله الشمس، وكان رمز هذا الإله هو الذهب والفضة. وقد تعايش هذا الإله زمناً طويلاُ مع المسيحية جراء الازدواجية الدينية الذي توافق مع عصر التبعثر السياسي في روسيا خلال القرنان الحادي عشر والثاني عشر الميلادي. ومما يجدر ذكره ان الديانتين المسيحية وعبادة دايزبوگ لم تكونا في حالة صراع، بل يصح القول انهما كملت احداهما الأخرى، فالأميرات في روسيا القديمة كن يحملن على سبيل المثال تيجاناً طقوسية في وسطها اما صورة يسوع المسيح أو صورة دايزبوگ، ومع الوقت تحول دايزبوگ الى دايبوگ وهي عبارة سلاقية تعني: فليعطينا الإله، وهو أمر لا يخالف المسيحية؛ من جانب آخر عدت التقاليد السلاڤية الملك-الشمس الحاكم الأول للبلاد، والمشرع الاول الذي يرتبط به التقويم السنوي، وقد صوروا الملك-الشمس في مركبة ذهبية تجرها بدل الخيل كلاب لها اجنحة طيور، وكان الإله يقف في تلك المركبة حاملاً بيديه صولجانين رسمت عليهما اوراق السرخس[1].

---

[1]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص100؛ امام، معجم ديانات واساطير العالم،ج1،ص289.

11.الإله خوروس(**Khoros**).

كان عند السلاف إله شمسي آخر، وهو الإله خوروس(معنى اسمه الحرفي: الشمس)، وربما كان ابناً للإلهين پيرون وموكوش، واذا كان دايزبوگ قد مثّل دفء الشمس وضوءها، فإن خوروس كان إله الشمس مباشرة، فقد رأى القدماء وليس السلاف وحدهم ان النور كان اولاً، والشمس نفسها ثانياً، وقالوا: "ليست الشمس سوى تجسيداً للنور". ولم يكن لـ خوروس وجه بشري، فهو كقرص الشمس الذي يتحرك في السماء، وكانت الزلابيات الذهبية المستديرة الشكل التي يحملها السلاف في الصوم الكبير ترمز الى شموس صغيرة، كما شاعت عادة دحرجة عجلات ملتهبة ترمز للشمس[1].

12.الإله ستريبوگ (**Stribog**).

الذي عُد الإله الأب، وهو إله الريح في الأساطير السلافية، وان كانت الرياح في بعض الملاحم الروسية تسمى حفيدة ستريبوگ[2].

13.الإله سيڤاروزتش(**Svarozhich**).

اي السماوي وعُد إلهاً للسماء والنار، وكان ابن سڤاروگ، وشقيق دايزبوگ، وقد علم البشر تصنيع الحديد، وأرسل لهم الملقط، لذا كان سيڤاروزتش مرتبطاً بالنار، التي دعاها السلاف على اسمه سڤاروغيتش. وهذا

Roman Jakobson, "Slavic Mythology", in: Funk and Wagnalls Standard Dictionary of Folklore Mythology and legend,(New York, 1950),Vol:2,PP.1025-1028; McDermott, Bulgarian Folk Customs,P.14.

[1]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص100؛
Kennedy, Encyclopedia of Russian and Slavic Myth and Legend,P.149.

[2]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص101؛ امام، معجم ديانات واساطير العالم،ج3،ص273.

الإله يصور في الآثار الفنية وهو يضع خوذة على رأسه، وعلى صدره صورة لرأس ثور اسود، ويمسك في يده سيفاً بحدين، وكانت تقدم إليه القرابين البشرية، وقيل ان احد الأساقفة تم اسره عام 1066م، وقدمت رأسه الى هذا الإله[1].

14.الكلب المجنح سيمورگ(Simorg).

تابعاً لإله الشمس خوروس ودايزبوگ، وقد عُد إله الجذور، والبذور، وحارس البذار والزرع، ولكن هذا الإله تحول مع مرور الزمن تحولاً كبيراً، فقد كان في الأول إلهاً للنار، ثم تخيلوه في صورة انسان كما في صورة صقر، ولم يكتسب سمات الكلب المجنح إلا في زمن متقدم[2].

مارس السلاف عبادات جماعية ترتبط بالعمل الزراعي، لكن وثائق اثباتها في المدونات القديمة قليلة جداً في الحقيقة، وقد ورد في إحدى المواعظ الكنسية ما يلي: "نطلب منه ونستدر خلق المطر من اجل الينابيع والأنهار"، وهي اشارة الى طقس سحري يتم بممارسته استدرار المطر. وجاء في مدونات كييف التاريخية ان المروج كانت في السابقة وثنية: "مدنسة ومحرمة"، فهي: "تستمد قوتها من البحيرة والبئر والنبات"؛ وهناك حديث عن اعياد في مكان آخر في هذه المدونات لها علاقة فيما يبدو بالنشاط الزراعي. ان كثيراً من بقايا العبادات الزراعية الراسخة بقيت قائمة حتى وقت متأخر لدى السلاف، في شكل طقوس دينية-سحرية واعياد، جرى توقيتها في اكثر الأيام اهميتها من

---

[1]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص101؛ يبيفانوف وفيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوفييتي،ص32؛ امام، معجم ديانات واساطير العالم،ج3،ص282.

[2]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص101.

الدورة الزراعية لتتداخل فيما بعد مع الاعياد الكنسية المسيحية مثل: أيام بعد عيد الميلاد، التي تطابق زمن الانقلاب الشتوي للشمس(دورة السنة الميلادية الجديدة)؛ وعيد صوم الغفران الكبير في اوائل الربيع؛ والطقوس الربيعية، المطابقة الآن لعيد الفصح المسيحي؛ ودورة الأعياد الصيفية، التي وُقت قسم منها مع يوم الثالوث، والقسم الآخر مع يوم يوحنا المعمدان(ايڤان كوبالا)؛ ومعشر التآخي الخريفي، وهي موائد احتفالية عامة تُعد بعد انتهاء اعمال الحصاد. وجميع هذه العادات والطقوس المتماشية مع الدورة الزراعية كثيرة التشابه لدى كافة الشعوب السلاڤية، كما هو الأمر لدى غير السلاڤيين؛ وقد نشأت -حسب كل الافتراضات- من مآدب متواضعة والعاب بسيطة، أي احتفالات عند بدء أو عند نهاية الاعمال الزراعية المحددة تداخلت مع تصورات خرافية ومراسم سحرية؛ وكانت المراسم السحرية المتعلقة بالزراعة اما أولية تشير الى بدء العمل (سحر اليوم الأول، والعادات والكشف عن الغيب عشية السنة الجديدة)؛ وإما ختامية(طقوس إبان الحصاد مثل طمر بيضة دجاجة في اخدود وغيرها)، وبقيت هذه الطقوس تمارس حتى وقت قريب. وهناك وضوح أقل بكثير عن الآلهة التي جرى تشخيصها وهي حماة العمل الزراعي الذي كان السلاڤيون بلا شك يقومون به. وفي الحقيقة يعثر في المؤلفات الأدبية على اسماء كائنات ميثولوجية ما يُزعم انها من حماة العمل الزراعي من امثال(كوليدا، وياريلو، وكوبّالا، وليل، وموستروما وغيرها)، وقد كتب عنهم المؤلفون القدماء الكثير، ولاسيما انصار المدرسة الميثولوجية، غير ان كافة هذه النماذج تدعو للريبة الشديدة، فقد تكونت اما بتأثير المسيحية،

فـ كوبّالا مثلاً كان يوحنا المعمدان؛ وليل مشتق من هوللويا المسيحية؛ أو انها مجرد مطابقة الاعياد والطقوس بأشخاص، فمثلاً: كوليدا أُخذ من اسم العيد القديم كاليند، ويتطابق مع ايام بعد اعياد الميلاد السلاقية الشتائية[1].

كان من ضمن المعتقدات السلاقية الإيمان بوجود الجوهر الخارق المدعو بس(Bes)، وهذه الكلمة كانت تعني في البدء، على ما يبدو، كل ما هو خارق ومخيف، ويمكن ان تُقارن بالكلمة اللتوانية بيساس وتعني: الخوف؛ واللاتينية فويدس(Foedus)، اي مخيف، ومؤذي. وما زال حتى الآن في اللغة الروسية كلمتا بيشيني وتعني: مهول، وبيسيتسا، أي: جن جنونه. وبعد اعتناق المسيحية اصبحت كلمة بس(Bes) صنواً لروح الشر، وتحمل مفهوماً موازياً لمفهوم الشيطان(تشورت). ولكن هناك مشكلة وهي ان معنى هذه الكلمة قبل المسيحية غير واضح، فمن مختلف المحاولات التي جرى لتفسيرها، يمكن القول ان اقربها إلى الصحة كان الفرضية التي تقدم بها التشيكي كارل ارين فهو يرجعها الى الكلمة السلاقية القديمة كرت(krt)، المرتبطة باسم إله السلاف الغربيين كرودو(Krodo)، كما تدعى به روح البيت لدى التشيكيين كريت(Kret)، والبولونيين سكرزات(Skrzat)، واللتوانيين كرات(Krat)؛ ويبدو ان الجذر هو من الكلمة كراتشون/ كورتشون، المعروفة لدى السلاف. وتحمل الكلمة كراتشون/كوروتشون عدة معانٍ منها: العيد الشتوي(سفياتوك)؛ وخبز العيد المحضر في هذا الوقت؛ أو روح ما أو إله الشتاء؛ والموت، ويقال: لقد امسك به كوروتشون، وتعني بالروسية: لقد مات. ويمكن الظن، ان قدماء

---

[1]) توكاريف، الأديان في تاريخ شعوب العالم،ص224.

السلاف آمنوا بإله للشتاء والموت، وربما يمثل ظلام الشتاء والبرد؛ وهناك آثار لنموذج كرت-سرت قد يكون على علاقة بتصور ثنوي اولي عن بداية منيرة ومظلمة في آن واحد. غير ان جذر كلمة كرت اختفى، اما تشرت/تشورت، فقد بقي تقريباً في كافة اللغات السلاڤية كتشخيص لأية قوة شريرة خارقة، واصبحت كلمة تشورت مرادفاً لكلمة شيطان المسيحية[1].

قدم السلاف العبادة للقوى الطبيعية مثل الينابيع أو الاشجار أو الحجارة احتراماً للأرواح[2]، وابرز تلك الارواح:

1.**ارواح الغابة:** وهي بالروسية ليشي والتي تجسد العداء الحذر للمزارع السلاڤي نحو الغابة العذراء والتي عليه انتزاع الأرض منها لزراعتها حين يتهدده خطر الضياع بين اشجارها ونباتاتها الكثيفة، والهلاك من الوحوش الضارية.

2.**روح الكوارث المائية**: وهي بالروسية فوديانوي والتي تثير ذعراً اكثر بكثير مما تسببه ليشي، ذلك ان الغرق في لجة البحيرة اشد إثارة للرعب من خطر الضياع في الغابة.

3.روح الحقل: وهي بالروسية پولودنيتسا، وهي تمثل امرأة ذات رداء ابيض، يقال انها تعمل في الحقل في قيظ الظهيرة، في حين تقتضي العادة الاستراحة قليلاً من عناء العمل؛ وان پولودنيتسا تُنزل العقوبة بمن يخرق العادات بلوي رأسه أو بطريقة اخرى من الطرق، وتمثل پولودنيتسا احياناً تشخيص لأخطار ضربة الشمس.

---

[1]) المصدر نفسه،ص226-227.

[2]) Barford, The Early Slavs,P.189.

4.ڤيلي: يبقى نموذج ڤيلي اكثر الأرواح تعقيداً واقلها وضوحاً، ولاسيما نموذجه المنتشر بين الصرب، كما يُعثر عليه في المصادر التشيكية والروسية؛ وهناك افتراض لدى بعض الباحثين بأنه قديم لدى السلاف وعام؛ ويقول آخرون أيضاً انه مجرد نموذج لدى سلاڤيي الجنوب. وان ڤيلي يمثل عذراوات الغابات والحقول والجبال والمياه أو الهواء، التي بإمكانها اتخاذ موقف صديق أو معادي من الإنسان، ارتباطاً بسلوكه الشخصي. وما زال أصل ومنشأ ڤيلي غير واضح، لكن اندماج عناصر مختلفة فيه أمر لاشك فيه، ففيها تجسيد للكوارث الطبيعية، وربما تمثل تصورات عن أرواح الموتى، وعن قوى الخصب. وتبدو الكلمات التي ربما اشتقت منها سلاڤية، إلا انها موضع خلاف، فربما من الفعل ڤيتي ويعني: طرد، طارد، حارب؛ أو من الفعل ڤيليتي، أي: يندفع في رقص عاصف.

5.**روسالكا**: ان اصل نموذج روسالكا اكثر وضوحاً، مع ان هذا الأخير هو اكثر تعقيداً، وان هذا النموذج أو ما هو قريب منه في أسوء الأحوال معروف وسط جميع السلاڤيين. وقد حدث كثير من الخلاف والنقاش حوله، إذ يعتقد البعض ان روسالكا تشخيص للماء، ويفترض آخرون انه يمثل الغريقة. ويرجح ان تكون الكلمة مشتقة اما من روسي، أي: مضيء، واضح، اما الى روسلو، أي: رافد، وان هذه الكلمة ليست سلاڤية بل لاتينية الأصل من الجذر روس(Ros). والحقيقة انه لا يمكن فهم الاعتقاد بالروسالكات والطقوس المرتبطة بها، دون دراسة الطقوس القديمة والسابقة للمسيحية وتأثيرها على السلاڤيين. وترتبط تلك الطقوس بعيد (دومنيكا روزاروم/ Domenica Rosarum) عند شعوب

البحر المتوسط وهو مهرجان شعبي يتعلق بوفرة الخضار في الصيف[1]، وشكله الاغريقي(پوڤواركا/Povoarca). وقد تم نقل هذه الروسلات الاغريقية-الرومانية الى السلاف سوية مع المسيحية لتمتزج مع الطقوس المحلية الزراعية الربيعية- الصيفية لديهم ؛ وما زال لدى البلغار والمقدونيين روسلات أو روسالنيتسيين، باعتبارها من اعياد الصيف تحل قبل يوم الثالوث. ويحتفل الروس أيضاً بالأسبوع الروسالكي(قبل الثالوث)، وكذلك باحتفال وداع روسالكا؛ حيث تأخذ فتاة شكل روسالكا، أو مظهر ناطور من قش. ويبدو ان روسالكا تمثل تجسيد للكوارث المائية، فـ روسالكا تحب اجتذاب الناس نحو الماء واغراقهم، وهناك تصورات تخصها عن اهلاك النساء والفتيات في الماء؛ كما ترتبط الـ روسالكات بأرواح الخصب، إذ تظهر الروسالكات العظمى في معتقدات جنوبي روسيا في الاكمات، كما تظهر وهي تقدم محصول القمح، والاصواف، والقنب[2].

كانت من اهم العبادات لدى السلاف هي العبادات الجنائزية وعبادة الاسلاف، فقد آمن السلاف بوجود حياة أخرى بعد الموت، لذلك كانوا يضعون مع الميت في القبر إناء فيه عصيدة، ويتركون له سلاحه وادواته المنزلية، وكانوا يضعون مع الاطفال الالعاب أحياناً[3].

حافظ نظام العشيرة الابوية على وجوده زمناً طويلاً لدى السلاف، وجاء في مدونات كييف التاريخية: "يعيش الجميع في عشائرهم وعلى أرضهم، ولكل

---

[1]) Mircea Goga, La Roumanie Culture et Civilisation,(Paris,2007), P.368.

[2]) توكاريف، الأديان في تاريخ شعوب العالم،ص228-230.

[3]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص31.

عشيرة ما يخصها"، لذا فإن من الطبيعي استمرار وجود عبادة عائلية-عشائرية لـديهم متخـذة شـكل عبـادة الأسـلاف، وتـرتبط بالعبـادة الجنائزيـة. وفي كافـة المناطق التي شغلت اماكن تنقل ومعيشة للقبائل السلاقية، يُعثر على عدد كبير مـن المـدافن القديمـة وشـواهد القبـور، وكانـت العـادات الجنائزيـة معقـدة ومتنوعة: احراق الجثة(لاسيما لدى سلاقيي الشمال وجزئياً لدى الغربيين، ولا تتـوفر أدلـة عـن وجودهـا لـدى الجنـوبيين)؛ وتوسـد الجثـة(في كافـة الامـاكن منـذ القرن العاشر الى الثاني عشر الميلادي)؛ كما كان يجري حفظ أو أحراق الجثث في المراكب(بقايـا مـن الـدفن في المـاء)؛ وكانـت الشـواهد الكتابيـة توضـع فـوق القبـور؛ وعلى الـدوام تترك مع الميـت حـوائج مختلفـة؛ وتُـذبح الخيـول في وقـت دفـن الاعيـان، واحيانـاً أحـد العبيـد، وحتى زوجـة الراحـل احيانـاً، وهـذا كلـه يرتبط بتصورات ما عن حياة ما بعد الموت[1].

ان كلمة راي الروسية وتعني: جنة، وهي كلمة سلاقية عامة موجودة قبل المسيحية-كانت تعني بستاناً- وهي الصورة التي رسمت فيما يبدو لعالم ما بعد القبر-حسب الظن- لم يكن متاحاً للجميع؛ ولاشك في ان كلمة بيكلو أي: خبز، وقبـل نشـوء المسـيحية، تعني حرفيـاً: حريـق، نـار، ربمـا كانـت تعني العـالم الاسفل، حيث كانت تُحرق فيه أرواح الشر. وقامت المسيحية فيما بعد بتبني هـذه التصـورات القديمـة عـن الحيـاة الابديـة؛ وربمـا بقـي لـدى الاوكـرانيين

[1]) توكاريف، الأديان في تاريخ شعوب العالم،ص220.

وحدهم اعتقاد ميثولوجي مبهم عن بلاد ما حيث النعيم والرخاء وهي فيري أو ايري، حيث تتجه الى هناك الطيور في الخريف ويرتع الموتى[1].

على نقيض ما كان متوقعاً، بقيت المعتقدات المتصلة بعلاقة الموتى بالأحياء محفوظة بثبات مدهش، في الوقت الذي لا يجمعها جامع مع المعتقدات المسيحية. وقد جرى تقسيم الأموات بدقة شديدة الى صنفين، هذا التقسيم، الذي بقي متواصلاً على اقل تقدير في معتقدات سلاقيي الشرق. احد الصنفين، هم الراحلون الاطهار الذين قضوا بموت طبيعي بسبب المرض أو الشيخوخة، وأطلق عليهم عادة، بغض النظر عن العمر والجنس، اسم الأهل؛ والصنف الأخر الانجاس من الاموات، وهم من هلك بشكل غير طبيعي، عن طريق العنف أو قبل أوانه من القتلى والمنتحرين، والمنتحرين غرقاً، والموتى بسبب السكر الشديد؛ وعُد الأولاد المتوفون بلا معمودية من هذه الفئة وهو من تأثير المسيحية؛ وكذلك السحرة. وكان الموقف من هذين الصنفين من الموتى مختلف جذرياً: إذ حظي الأهل بالعبادة، وعُدوا بمثابة حماة للعائلة، اما الانجاس فيُخشى جانبهم ويُلزم ارضاؤهم لتجنب أذاهم[2]. وان تمجيد الأهل ما هو في الحقيقة سوى عبادة الأسلاف العائلية وكانت على ما يبدو عشائرية سلالية فيما سبق، وجاء اثباتها فيما كتبه مؤلفو القرون الوسطى بالقول: "انهم يعبدون آلهة البيت"، وما زالت قائمة بصفة مخلفات حتى ايامنا هذه، إذ يتذكر الفلاحون الروس ذويهم في ايام معينة من السنة، لاسيما يوم السبت

---

[1]) المصدر نفسه،ص220-221.

[2]) المصدر نفسه،ص220-221.

الولادي(قبل صوم الغفران الكبير)، وكذلك قبل عيد الثالوث، ويوم الفرح، يوم ذكرى الموتى(اول اسبوع بعد عيد الفصح). وكان الفلاحون البيلوروس يحتفلون عدة مرات في العام بعيد دزيادوڤ اي الاجداد والموتى، ويكتسب اهميته في فصل الخريف على وجه الخصوص، والجزء الأكبر منه يجري يوم السبت الأخير من شهر تشرين الأول. وكان يجري الاستعداد له بكل عناية، فيُنظف المنزل ويُغسل، وتُحظر أطعمة مقدسة؛ ويدعى الدرزياديون للمشاركة وراء مائدة الطعام، حيث كانت تقام الولائم الصاخبة على الدوام. وما زال الصرب والبلغار يحتفلون حتى الآن، وليس الفلاحون منهم وحدهم، بل وسكان المدن كذلك، بعيد زالوشنيتسا، وهو احياء ذكرى الموتى في المقابر، حيث يأتون معهم بوجبات من الطعام، فيتناولون ويشربون مما جلبوا فوق القبور، ويتركون قسماً للموتى؛ فهل كان هذا الموقف من الموتى باعتبارهم حماة العائلة، ليس هناك وضوح في الأمر، غير ان تصرفهم في الماضي كان من هذا المنطلق[1].

يجب عد بقايا عبادة الاسلاف العائلية-العشائرية القديمة ما زالت قائمة حتى اليوم في ثلاث أدلة مهمة وهي:

1. عادة الاحتفال بمجد العائلة(كراسنو ايميه): إذ يُحتفل بالمجد في يوم القداس المسيحي- حامي العائلة؛ غير ان طابع العيد بالذات ومنشأه كان قبل المسيحية بدون شك، وكان يُحتفل به على ما يبدو في الأيام السالفة، على شرف الاسلاف حماة العائلة.

---

[1]) المصدر نفسه،ص221-222.

2.هناك أثر آخر عن عبادة الأسلاف التي قائمة على الدوام، وهو نموذج تشورا الذي من المؤكد انه كان السلف الأول المعبود، ورغم انه ليس هناك دليل مباشر لعبادته، انما بقيت له آثار مقنعة في اللغات السلاقية؛ ومن الممكن ان تكون اشكال تشورا قد صُنعت من شجرة، وهذا يُستدل عليه من الكلمة الروسية تشوركا، وتعني: جذع الشجرة.

3.أخيراً فإن آخر مخلفات عبادة الأسلاف العائلية-العشائرية القديمة هي الايمان بـ دوموفري التي ظلت متواصلة حتى اليوم، لاسيما لدى السلاڤ الشرقيين، حيث استمر النمط الابوي-العائلي قائماً لمدة اطول. ودوموفري هو حامي العائلة الخفي، وهو حسب المعتقدات الشعبية موجود في كل بيت، يعيش في العادة تحت الموقد، أو خلف الموقد، وتحت العتبة، في هيئة إنسان؛ يهتم باقتصاد البيت، ويحمي أرباب البيت المحبين للعمل، ولكنه يعاقب الكسالى والمهملين؛ ومتطلباته تقديم فروض الاحترام له وقرابين صغيرة مؤلفة قليلاً من الخبز والملح والسميد وغيرها؛ يحب الخيل، ويعتني بها، لكن فقط إذا نال لون شعرها اعجابه، وفي الحالة المعاكسة قد يقوم بقتلها؛ ويمكن لـ دوموفري ان يظهر بشكل عجوز لرب بيت متوفي أو حتى ما زال حياً، وكأنه شكله تشخيص لخير العائلة وضرها ولميزانية البيت، ويفسر الحفاظ على هذا النموذج منذ عصر سحيق في القدم برسوخ طراز العيش الابوي في اوساط العائلات الفلاحية الروسية والبيلوروسية؛ في حين بقي هذا النمط من العيش لدى الاوكرانيين ضعيف الأثر لذا اصبح الأيمان بـ دوموفري باهتاً؛ اما السلاڤ

الغربيـون فلـديهم نمـاذج مشـابهة، منهـا على سـبيل المثـال سـكرجيتك عنـد التشيك[1].

كان الموقـف مـن الموتى الانجـاس مغـايراً تمامـاً، حيـث لـم تكـن تـربطهم أيـة رابطـة مهمـا ضـعُفت لا بالعبـادة العائليـة ولا بالعشـائرية؛ وكل مـا في الأمـر ان جانب الانجاس كان يُخشى، ومرد هـذا الخـوف الخرافي-على ما يبـدو- كان وليد إما الخـوف مـن هـؤلاء النـاس إبـان حياتهم(مثـل كونهم سـحرة)، أو سـبب وفـاتهم غير العاديـة بالـذات. وهنـاك القليـل جـداً مـن العناصـر الروحيـة كمـا يلـوح في التصـورات الخرافيـة حـول هـؤلاء المـوتى الانجـاس: فـالخوف لـدى السـلاقيين لـم يكـن مـن الأرواح أو روح الميـت، بـل منـه بالـذات؛ ويمكـن رؤيـة هـذه التـدابير الخرافيـة الشـعبية التي كانـت حيـة حتى وقـت قريـب بشـأن منـع أذيـة كهـذه تـأتي مـن جانـب الميـت، فمـن اجـل عـدم افسـاح المجـال أمامـه لينهض مـن قـبره ويلحـق الضـرر بالأحيـاء، كـان يجـري تثبيـت الجثـة بوتـد مـن خشـب الحـور الرجـراج، وبدق مُثّبت خلف الأذن وغير ذلك[2]؛ وباختصـار، كان الخـوف مـن الجثـة ذاتهـا

[1]) المصدر نفسه،ص222-223.

[2]) لدى الكثير من الشعوب معتقدات متنوعة تشير الى منع الموتى من اذية الاحياء، اذ كانوا يكدسون كومة من الحجارة على جسد الميت، أو يربطونه بحبال متينة، واحيانا كانوا يغرزون وتداً الى صدره لكي يقيدوا الجسد الى الارض، فلا يكون للميت القدرة على الفكاك منها، وكانت تلك الوسائل لمنع الجسد من المشي، ويتضح من هذه العادات ان هناك عداء بين الاموات والاحياء. ويمكن ان نقدم نموذج واحد عن حالة مشابهة للمعتقدات السلاقية في اوروبا ولكن من السويد، ففي حكاية شعبية تتحدث انه في مزرعة بروكيند في مقاطعة فاردسناس في السويد عاشت في قديم الازمان سيدة ثرية تدعى باربرو، وكانت صارمة، قاسية القلب في معاملتها لخدمها، اذ كانت لا تتواني عن تقييدهم وايديهم وراء ظهورهم، والالقاء بهم في السجن لأبسط الاسباب. ولتزيد من معاناتهم كانت تضع امامهم مائدة مليئة بالطعام لا يستطيعون الوصول اليها بسبب قيودهم. وعندما دفنت السيدة باربرو بعد وفاتها في قبر اسلافها في كاتدرائية لينكوبينج، بدأت الاشباح تظهر بشكل مكثف مما استلزم نبش جثتها ونقلها الى فناء كنيسة فاردسناس، لكنه لم تحظ هناك بالسكينة والهدوء، وعندها، وبناء على

وليس من الروح مع الإيمان بخصائصها الخارقة التي تجعلها تتحرك بعد الموت. ونُسبت للأنجاس من الاموات ظواهر طبيعية غير مرغوبة، كالجفاف مثلاً؛ ولدرئه، كان يؤخذ من قبر منتحر أو غيره من الأموات شيء من التربة وتُلقى في مستنقع أو يجري ري القبر نفسه في الماء؛ وامثال هؤلاء الموتى كانوا يدعون اويبريين اي مصاصي الدماء، وهي كلمة غير واضحة المصدر، وربما كانت سلاقية محضة، لأنها ورادة في كافة اللغات السلاقية. وقد تكون الكلمة القديمة ناڤييه، أو ناڤي، والتي ربما تعني بالضبط امثال هؤلاء الانجاس والموتى الخطرين؛ وعلى اقل تقدير، ورد في مدونات كييف التاريخية(عام 1092م) قصة الوباء الذي حل في نهر بوبوتسك وسبب الذعر للشعب، وفُسّر بأن هؤلاء الموتى يضربون نهر بولوتشيني الذي يرفد بولوتسك"[1].

رغم قلة الاساطير الاصلية التي وصلتنا من روسيا القديمة ؛ فإن التقاليد الشفاهية تقدم الكثير من التصورات عن تلك الاساطير، فالدلائل التاريخية تشير ان الادب الشعبي الشفاهي ربما قد ظهر خلال حقبة سحيقة من تاريخ روسيا القديم، فقد الف الناس الاساطير حول اصل الارض والشمس والانسان والوحوش والطيور، وحفظوا غيباً ما روى اسلافهم وابطالهم، وتُعد ملحمة كاليڤالا اقدم اثر لفولكلور شعوب روسيا اي اسلاف الكاريليين، اذ

اقتراح احد الحكماء، اخرجت جثتها من جديد ونقلت الى مستنقع دفنت فيه، وثبتت بغرز عصا اخترقت التابوت والجثة. وبعد ذلك صارت تُسمع في كل ليلة ضجيج اشباح وصوت ينادي: "باربرو العصا". انظر: هيرمان هوفبيرغ، اوركو البقرة العملاقة: حكايات شعبية من السويد، ترجمة: هالا دروج،(ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث،2010)،ص22-23. وحول دراسة مفصلة لمعتقد الخوف من الموتى انظر: اسامة عدنان يحيى، عالم الاموات: اسرار العلاقة بين الموتى والاحياء،(بغداد: اشوربانيبال للكتاب،2019)،ص43-66.

[1]) توكاريف، الأديان في تاريخ شعوب العالم،ص223.

يتصارع ابطال البلاد الاسطوريين في كاليڤالا مع الساحرة العجوز الشريرة لأنها سرقت من الناس الطاحونة التي تطحن بنفسها وقد صنعها الحداد ايلمارينين، وتصف اغاني كاليڤالا مشاهد القنص وصيد السمك والزراعة البدائية والرعي والحرف في عصر المجتمع البدائي[1].

وتشير اسطورة الى معركة يشارك فيها الآلهة كلهم مع الإله الاكبر پيرون ضد الثعبان، إذ كان پيرون يخوض صراعاً إما ضد الثعبان، أو ضد الملك الثعباني، وقد وصفت الاساطير مختلف اشكال هذا الصراع، اذ نعرف ان الثعبان يخطف قطيع إله الرعد، أو زوجته، أو ابناء الشمس، فينازل پيرون الثعبان مطلقاً سهامه-صواعقه عليه؛ لكن هذا يحاول ان يتخفى في الاشجار، وخلف الصخور، أو حتى في اجساد البشر والحيوانات، بيد ان صواعق پيرون تدركه وتقتله، فيهطل المطر من جراء ذلك بشكل غزير. ولكن الصراع لا ينتهي ومن الربيع حتى الخريف يطارد پيرون اعداءه ويصرعهم[2]. وبلا شك كانت هذه الاسطورة تمثل تراثاً هندياً-اوروپياً قديماً مما يرجح كونها اسطورة اصيلة لدى القبائل السلاڤية، وان الدافع من وراء ذلك الافتراض هو وجود اسطورة هندية مشابهة لها وردت في الريگ-ڤيدا(وهو نص هندي يعود الى الالف الثاني قبل الميلاد)، ففي اسطورة تعود الى الإله اندرا(هناك فرضية تشير الى ارتباط الإله پيرون بالإله اندرا) نقرأ:

"أول ما قام به سائس الرعد(اندرا)

---

[1]) بيبڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي ،ص16.

[2]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص98.

حين ذبح التنين واطلق سراح المياه

وبقر بطون الجبال

لقد جندل التنين القابع فوق الجبال

حيث صيّره تفاشتري صاعقة سماوية

فجأة تحدرت المياه ثيران خائرة

ثم تدفقت صوب المحيط...

لقد ذبح اندرا ڤريترا وفيامسا الذي هو أشد بأساً من فريترا

بصاعقته، بسلاحه الجبار

مثل اغصان شجرة اسقطها فأسٌ

خر التنين صريعاً فوق الأرض...

بلا قدمين أو يدين، ظل يصارع اندرا

الى ضربته الصاعقة بقوة على ظهره...

بجبروته العظيم، يهجع ڤريترا، الافعى"[(1)].

وهكذا يظهر من الأسطورة ان اندرا يقاتل الثعبان فريترا وما ان يقتله حتى تخر المياه صوب المحيط؛ وهو الفعل ذاته الذي قام به پيرون مع الثعبان.

تشير الاساطير والتقاليد الشعبية السلاڤية الى صراع الابطال مع الثعبان مثال ذلك نجد ان البطل دوبرينيا نيكيتيتش يهزم الثعبان غورينيتش؛ والبطل اليوشا بويوفيتش الذي يهزم الثعبان توغارين؛ وايليا موروموتس الذي يهزم

---

[1]) انظر النص الكامل لأسطورة اندرا في: عبد الوهاب ابو زيد، خزانة الشعر السنسكريتي،(ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث،2019)،ص48-51.

البلبل قاطع الطريق، أو الثعبان-الصقر ذا القرنين الذي يحط على شجرة البلوط في الغابة الكثيفة[1].وخلال العصور الوسطى ظهرت ملاحم البطولة لدى الشعب الروسي لاسيما في كييف، وتشير ملاحم البطولة الى الابطال الاسطوريين وقواهم الخارقة وهي بلا شك تعكس مفاهيم قديمة تحاكي العصور الغابرة، وفي الوقت الذي كان فيه ابطال ملاحم البطولة في اوروپا خلال العصور الوسطى هم الفرسان الباحثون عن المغامرات والمنتصرون في مباريات الفروسية؛ وكان ابطال الملاحم الروسية العظيمة هم الابطال الجبابرة من امثال ايليا موروميتس نصير الفلاحين الفقراء؛ ودوبرينيا نيكيتيتش واليوشا بوبوڤيتش الذين يقفون عند الحدود يحمون الاراضي الروسية من الاعداء؛ واصبح بطل الملاحم ميكولا سيليانينوڤيتش، وهو الفلاح البسيط، مجسداً لجبروت الشعب وقواه التي لا تنفذ، وتشير الاسطورة المرتبطة به انه لم يستطع 30 من الشبان الشجعان والبطل الجبار ڤولغا ڤسيسلاڤييڤيتش الشهير نفسه ان يرفع محراث ميكولا من الارض، بينما هو رفعه من شق الارض المحروثة بيد واحدة بكل سهولة. ويحتوي اقدم سجل روسي للحوادث التاريخية ويدعى: قصة السنين الغابرة على اغانٍ تاريخية، وروايات شعبية ليست قليلة، منها قصة انتصارات وموت الامير اولغ؛ ونلاحظ ان ابطال حكايات السجلات هم اناس بسطاء مثل ابن حرفي انتصر في مصارعة بطل جبار متباه من البتشيتيگيين، أو عجوز علم سكان نوڤگورود كيف ينقذون

[1]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص98.

مدينتهم من العدو[1]. وهناك ايضاً الملحمة الخالدة: كلمة عن كتيبة ايغور[2]، التي تتحدث عن الحملة الفاشلة التي قادها الامير ايغور امير نوڤگورود سيڤيرسكي ضد اليولوڤتسيين عام 1185م. ان عمق افكار الملحمة وروعة صور ابطالها وبلاغة لغتها تثير اعجاب القارئ الى الآن، فالمؤلف يشعر بالمرارة على الوطن الذي تمزقه منازعات الامراء ويخربه اليولوڤتسيون، وكان المؤلف يدافع بحرارة عن وحدة الاراضي الروسية ويتغنى بالعمل السلمي الذي يؤديه الفلاح. كما عكست الملاحم الشعبية التي أُلفت عن ڤاسيلي بوسلايف والضيف الغني سادكو، حياة نوڤگورود ذات الطابع الاصيل في القرون الوسطى، فالبطل الشعبي ڤاسكا(اسم تصغير لـ ڤاسيلي) بوسلايف يتميز بالقوة والشجاعة وسماحة الخلق التي ليس لها مثيل، وهو في الوقت ذاته لا يؤمن بالأحلام ولا بالفأل السيئ. اما الموسيقي سادكو الضارب على آلة الگوسلي فقد أصبح غنياً بعد ان حصل على هبة من ملك البحار بسبب عزفه الرائع، وتصور ملحمة سادكو الحياة المدنية في نوڤگورود القديمة بصورة رائعة، وتحتوي على اساطير النوڤگورديين البحرية[3].

فضلاً عن الملاحم البطولية الروسية التي ذُكرت اعلاه، تشير الاساطير الشعبية الروسية الى ابطال شعبيين روس ظلت تخلدهم الذاكرة الروسية منهم فوما بيرينيكوف(Foma Berennikov)، وهو بطل في الاساطير الروسية

---

[1]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص51.

[2]) حول الترجمة الكاملة للملحة: الكلمة عن حملة ايغور، ترجمة: خميس حرج نشي،(موسكو: دار رادوغا،1989).

[3]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص66-67.

تقول عنه اسطورة انه قتل اثنى عشر بطلاً من الاشداء، لكنه في الواقع قتل اثنى عشر ذبابة من ذباب الخيل، وقد مكنه ذكائه من هزيمة بطال آخرين، ثم تزوج في النهاية من ابنة ملك بروسيا[1]. وهناك ايضاً فرولكا(Frolka) وهو بطل شعبي في الاساطير الروسية استطاع ان يُنقذ ثلاث اميرات كن قد اختُطفن، وكان التنين ذو الرؤوس الخمسة قد اختطفن الاميرة الاولى، بينما اختطف التنين ذو الرؤوس السبعة الاميرة الثانية؛ وخطف التنين ذو الرؤوس الاثنى عشر الامير الثالثة، وساعد فرولكا جنود مجهولون بينهم رجل اسمه ايرما(Erma) من هزيمة الوحوش الثلاثة وتحرير الاميرات[2].

لا نعرف الكثير عن اولئك القائمين على شؤون العبادة في الديانة السلاقية، ولكن القيام بشعائر العبادة العائلية-العشائرية كان مرهوناً قبل كل شيء برؤساء العائلات والسلالان العشائرية؛ اما العبادة الجماعية فقد كانت في ايدي اخصائيين ممتهنين يدعون فولخفيين؛ وهذه الكلمة لا نعرف تحديداً مصدرها، فهناك رأي يقول ان لها علاقة بالكلتيين، فكلمة فولوخ ربما لها علاقة بكلمة فالاخ وهي تسمية سابقة للكلتيين؛ وهناك رأي اخر يقول انها مرتبطة بالكلمة ڤولڤا لدى الالمان وتعني نبية؛ وربما ان هناك ارتباط بين كلمة فولخف وكلمة فولشيبني/فولشيبستفو، أي: ساحر، سحر، ولا نعرف ان كان هؤلاء الفولفخات ان كانوا سحرة أم شامانات. وهناك معلومات انه بعد اعتناق روسيا المسيحية اتخذ الفولفخات موقف المدافع عن الايمان القديم،

[1]) إمام، معجم ديانات واساطير العالم،ج1،ص389.

[2]) المصدر نفسه،ج1،ص400.

وفي الوقت ذاته قادة للانتفاضات المعادية للأمراء والاقطاعيين كما حدث مثلاً عام 1071م؛ وهذا يسهل فهمه واستيعابه، لأن المسيحية جاءت الى روسيا باعتبارها ديانة تخص الاقطاع والأمراء. وبقي محفوظاً لدى السلاف حتى الازمنة المتأخرة وجود السحرة، والمشعوذون واصحاب الكتب السوداء في المجتمع الروسي الذي نُسبت إليهم المعارف الغيبية، والصلات بالقوى النجسة؛ وكان الى جانبهم أيضاً الاخصائيون بالسحر العلاجي المرتبط بالطب الشعبي؛ غير ان الاعتقاد الشعبي يفصل ما بينهم وبين السحرة، ولم يكن نادراً اتخاذهم موقف العداء من السحرة، إذ انهم حسبما يعتقدون يعملون بمعونة الآلهة وليس بقوة غير طاهرة. ومن جانب آخر كان هناك بلا شك وجود اماكن مقدسة لتقديم القرابين في ديانة السلاقيين القدماء، وهناك بعض اماكن العبادة والمعابد الى جانب صور الآلهة وتماثيلها، غير ان المعروف منها قليل جداً، مثل مكان للعبادة اركونسكي في جزيرة ريوغين، ومكان للعبادة في ريتر؛ وآخر قبل المسيحية في مدينة كييف اسفل كنيسة الدسياتين[1].

كانت الديانة الوثنية لدى السلاف بشكل عام ذات صلة بحياتهم الزراعية ويتضح ذلك في احتفالاتهم الدينية، ومن اعيادهم المهمة عيد كوليادا اي عيد الفأل الذي يحتفلون به اثناء الانقلاب الشتوي في 21-22 كانون الاول؛ وهناك أيضاً عيد كوبالا أو عيد السباحة الذي يتم الاحتفال به اثناء الانقلاب الصيفي في 21-22 حزيران، وهو عيد يرتبط بإله الشمس والخصب، وفي البدء كان السلاف يضحون في عيد كوبالا بفتاة يغرقونها في النهر، ولاحقاً تم استبدال

[1]) توكاريف، الأديان في تاريخ شعوب العالم،ص231-232.

الفتاة بدمية اسموها كوبالا. وكان السلاف اثناء الاحتفال بهذين العيدين يشعلون المشاعل الكبيرة ويقومون بالرقصات الجماعية ويقرأون الفأل لمعرفة المستقبل[1]. ومن الاعياد الاخرى عيد وداع الشتاء هو عيد سلافي قديم يستمر عدة ايام يودعون من خلاله السلاف الشتاء ويحتفلون بقدوم الربيع، والانتقال الى اعمال الزراعة الربيعية، واثناء هذا العيد كانت تقام الطقوس والولائم حيث كان السلاف يحرقون صورة الشتاء المصنوعة من القش، ويخبزون رغيف الرقاق للتضحية، ويشعلون المشاعل، ويضعون طعام العيد على قبور الاجداد[2].

بعد اعتناق روسيا المسيحية في القرن العاشر الميلادي بدأ القساوسة يلاحقون بقسوة الطقوس والاعياد الوثنية، لكنهم لم يستطيعوا القضاء على بعضها ودخلت ضمن الطقوس المسيحية كما سنرى[3]. كما مارس السلاف العرافة ويذكر المؤرخ البيزنطي پروكوپيوس انهم: "يقومون بالعرافة بمساعدة الاضاحي..."[4]. كما مارس السلاف السحر في العلاج، وهناك نص يقول: "...بقدرة الساحر يتم العلاج، وبالتعاويذ والدعاء للعفريت...يحدث رجفة، لأن الرجفة تُبعد الملاعين"[5].

---

[1]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص31.

[2]) المصدر نفسه،ص32.

[3]) المصدر نفسه،ص32.

[4]) المصدر نفسه،ص33.

[5]) توكاريف، الأديان في تاريخ شعوب العالم،ص231.

4

المسيحية

من دخولها لروسيا حتى القرن السادس عشر الميلادي

شهدت الديانة المسيحية في روسيا تطورات تاريخية مهمة، فقد اعتنقت روسيا المسيحية حوالي عام 988م في عهد امير كييف ڤلاديمير سڤياتوسلاڤيتش الملقب بالكبير(980-1015م)، ولاحقاً عُرف باسم القديس ڤلاديمير، وتشير الروايات الروسية ان الأمير ڤلاديمير رأى انه لم يكن من بد من ان يختار ديناً آخر غير الدين الوثني الذي يدين به، ولم يقف في سبيل اعتناقه هو ورعاياه الدين الإسلامي ألا الختان وتحريم الخمر؛ وصرح ان الروس لا يعدلون عنه، لأنه كان، اي الخمر، من مباهج الحياة عندهم. كذلك اخفق اليهود، كما تؤكد الروايات الروسية ذاتها، الذين جاءوا من بلاد الخزر عن طريق بحر قزوين، من اقناع الأمير الروسي باعتناق ديانتهم، فبعد ان اصغى ڤلاديمير الى حججهم، سألهم اين بلدهم؟ فأجابوا: "اورشليم، ولكن الله شتت شملنا في كافة انحاء العالم غضباً منه علينا"؛ فصاح: "اذن فقد بؤتم بلعنة من الله، ومع ذلك فأنتم تريدون ان تُعّلموا غيركم، اذهبوا، فنحن لا نريد مثلكم ألا يكون لنا وطن". بالمقابل فقد تأثر الأمير ڤلاديمير جداً بما رواه إليه قسيس اغريقي، حين عرض عليه صورة شاملة لتعاليم المسيحية، بعد ان نقد الديانات الأخرى نقداً موجزاً، بادئاً بخلق العالم وقصة فناء الإنسان،

وانتهى بالمجامع السبع المسكونية[1] ، التي اعترفت بها الكنيسة الإغريقية الارثوذكسية؛ ثم أوضح للملك صورة ليوم القيامة، ودخول الصالحين الجنة، وقذف الكفار في الجحيم، ووعده بميراث الملكوت اذا عُمّد. لكن ڤلاديمير لم يكن يميل الى الاندفاع في اختيار دين يحل محل الوثنية، لذا جمع زعماء الروس في دولته، ولما اخبرهم بما سمعه من ممثلي الديانات المختلفة، طلب منهم نصيحتهم فأجابوا: "أيها الأمير، إن كل انسان يمتدح ديانته، فإذا اردت ان تختار احسنها، فأبعث برجال عقلاء الى البلاد المختلفة ليكشفوا لك أية امة من الأمم تعظم الله بالطريقة المُثلى التي تليق بمقامه الأسمى". لذلك اختار الأمير لهذا الغرض عشرة رجال اشتهروا بالحكمة وسداد الرأي، فوجد هؤلاء السفراء بين البلغار المسلمين اماكن حقيرة المظهر، وصلوات تبعث على الكآبة، ووجوهاً واجمة؛ ووجدوا بين الألمان الكاثوليك حفلات دينية خالية من الأبهة

---

[1]) المجامع المسكونية: هي الاجتماعات الرسمية للأساقفة لوضع عقيدة أو نظام للكنيسة المسيحية، وعادة ما يسمى المستوى الادنى من تلك الاجتماعات سنودس أي المجمع الكنسي، وتمثل المجامع المسكونية الكنيسة كلها؛ تحدد الكنيسة المجمع المسكوني بالصيغة التالية: انه مجمع حازت تحديداته وقوانينه القبول في المسكونة كلها؛ وليس من الضروري ان يكون عدد الاساقفة الحاضرين وافراً بل يكفي ان يكون المجمع قد دُعي وعُقد؛ وليس من الضروري ان تكون اقطار العالم كلها ممثلة فيه أو ان اساقفتها قد دعوا اليه، ولكن ان كل ما يطلب لاعتبار المجمع مسكونياً ان يصير الاعتراف به في كل انحاء العالم(المسيحي) على انه مجمع مكسوني. وفي الوقت الذي تعترف فيه الكنيسة الكاثوليكية بـ 21 مجمع مسكوني فإن الكنيسة الارثوذكسية لا تعترف إلا بـ 7 فقط وهي المجامع المسكونية السبع الاولى من تاريخ الكنيسة وهي: مجمع نيقية عام 325م، مجمع القسطنطينية الاول عام 381م، مجمع افسوس عام 431م، مجمع خالقيدون عام451م، مجمع القسطنطينية الثاني عام 553م، مجمع القسطنطينية الثالث عام 681م، مجمع نيقية الثاني 787م. للمزيد من التفاصيل عن المجامع الكنسية وقراراتها انظر: حنانيا الياس كساب، مجموعة الشرع الكنسي أو قوانين الكنيسة المسيحية الجامعة،(بيروت: منشورات النور،1998)،ص10-14،ص41-835؛ انظر كذلك: جون ر. هينليس، معجم الاديان، ترجمة: هاشم احمد محمد، مراجعة وتقديم: عبد الرحمن الشيخ،(القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية،2010)،ص176-177.

والجلال؛ وأخيراً بلغوا القسطنطينية، فقال الإمبراطور البيزنطي لاتباعه: "دعهم يشاهدوا جلال إلهنا"، ثم أُخذوا الى كنيسة أيا صوفيا، حيث كان البطريق، وهو مرتدٍ ملابسه الرسمية، يحتفل بالقداس، وان فخامة البناء، وملابس القسيسين الكهنوتية الجميلة، وزخارف المذابح، ورائحة البخور الزكية، وسكون الناس المنبعث عن الاحترام والخضوع، والاحتفال الديني السحري الذي يتجلى في هيبة وخشوع، كل ذلك ملأ قلب الروس بالدهشة؛ وقد بدا لهم ان هذه الكنيسة لابد ان تكون مقام العلي الأسمى، وان الله اظهر للبشر مجده في ذلك المكان. ولما وصل السفراء الى كييف، وصفوا للأمير ما شاهدوه، فتكلموا باحتقار عن الديانة الإسلامية، ولم يكن لديهم ما يقولونه إلا القليل عن الديانة الرومانية الكاثوليكية؛ ولكنهم امتدحوا الكنيسة الإغريقية في حماسة وقالوا له: "ان كل رجل ذاق شراب حلو، سوف يعالج من الآن، اي شراب مر المذاق، ومن اجل هذا، لا نرغب بعد ان وقفنا على عقيدة الكنيسة الإغريقية، في اي ديانة أخرى". ثم استشار ڤلاديمير زعماء الروس مرة أخرى، فقالوا له: "لو لم تكن الديانة الإغريقية أحسن الديانات، لما اعتنقتها ابداً جدتك اولگا، أحكم البشر". وبذلك لم يعد ڤلاديمير متردداً، وفي عام 988م اعلن هذا الأمير المسيحية ديناً رسمياً لمملكته، وفي اليوم التالي لتعميده على يد اسقف مدينة خيرسون الاغريقية نبذ الأوثان التي عبدها اجداده، واصدر مرسوماً يقضي بأن يُذعن الروس كافة، سادة وعبيداً، اغنياءً وفقراءً، للتعميد وفق طقوس الديانة المسيحية[1].

[1]) ت. و. ارنولد، الدعوة الى الإسلام: بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، ترجمة: حسن ابراهيم حسن وعبد

بلا شك تنطوي هذه الرواية عن مبالغات كُتبت لاحقاً بعد فترة طويلة من اعتناق ڤلاديمير للديانة المسيحية، فمن جانب ان الإشادة بالأرثوذكسية تكشف عن تحيز واضح من قبل الرواية الروسية للكنيسة الارثوذكسية وتفضيلها ليس فقط على بقية الديانات المناظرة لها كالديانتين اليهودية والاسلامية، بل حتى على المسيحية الكاثوليكية؛ ومن جانب اخر يبدو ان ادخال عنصر مسيحي واضح داخل الرواية سابق لاعتناق الامير الروسي للمسيحية الارثوذكسية وهي جدته اولگا يشير الى محاولة كاتبها حسم قرار ڤلاديمير لصالح المسيحية، اذ لا يوجد اي دليل على ان اولگا كانت قد اعتنقت المسيحية، وعلينا ان نذكر جيداً كيف ان ڤلاديمير الوثني كان قد قدم سابقاً مسيحياً من الڤايكنگ كأضحية بشرية قبل اعتناقه المسيحية، ولم يراعِ ان تكون جدته مسيحية!!! ومع ذلك عندما اراد ان يعتنق هذه الديانة فإن مستشاريه ضربوا مثالاً بها وهي احكم البشر كما ادعوا، فلماذا لم يراعيها عندما قدم مسيحياً قبل ذلك قرباناً؟ بلا شك هذه الرواية لا تقدم اي حقيقة

المجيد عابدين واسماعيل النحراوي،(القاهرة: مكتبة النهضة المصرية،1947)،ص208-209؛ التكريتي، مقدمة في تاريخ روسيا الحديث،ص18.

Thomas Hopko, "Vladimir I", in: Encyclopedia of Religion, Editor: Lindsay Jones,(New York,2005),Vol:14, PP.9631-9632; Daniel H. Shubin, A History of Russian Christianity,(New York,2004),Vol: I, P.22-27; Kennedy, Encyclopedia of Russian and Slavic Myth and Legend,P.303-304.

وقد اشارت الروايات الاسلامية كذلك الى حادثة دخول المسيحية الى روسيا انظر على سبيل المثال: عز الدين ابن الاثير(ت 630هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: محمد يوسف الدقاق،(بيروت: دار الكتب العلمية،1987)،ج7،ص422-423.

تاريخية بقدر ما تقدم صياغة متأخرة لحدث تاريخي تحاول ان تمجد بالقديس ڤلاديمير ودوره الحاسم في اعتناق المسيحية.

ان ما يجب ندركه جيداً ان انتشار المسيحية في روسيا كان قد بدأ من قبل ذلك بزمن طويل؛ وقد اعتنق الأمير ڤلاديمير الايمان المسيحي على يد قساوسة بيزنطة[1]؛ ويجب الافتراض أيضاً بأن الأمير ڤلاديمير لم يكن يشعر بالراحة من محاولته خلق پانثيون خاص من قبل من آلهة ذات اصل سلاڤي سابقاً، اذ ما كادت تنقضي ثماني سنوات حتى أتى بالمسيحية من بيزنطة وأرغم الشعب كله على اعتناقها؛ اذ كانت المسيحية أكثر مطابقة واستجابة للعلاقات الاقطاعية القائمة، ولهذا أخذت شيئاً فشيئاً، وهي تتخلص من مقاومة الشعب، بالانتشار في اوساط السلاڤيين الشرقيين؛ وهذا ما حدث ايضاً مع سلاڤ الجنوب؛ اما السلاڤ الغربيين، فنتيجة ضغط السلطة الاقطاعية-الملكية الشديد فقد قاموا باعتناق المسيحية في شكلها الكاثوليكي عن طريق روما[2].

ومن اجل فهم السبب الذي دفع الامير ڤلاديمير الى هذا التوجه علينا ان نقدم تصور حول كل من الديانتين الوثنية والمسيحية وعلاقتهما بالسلطة:

1.ان الديانة الوثنية كانت ديانة تعدد الآلهة، ففضلا عن الآلهة الرئيسة كان السلاڤ يعبدون عدداً كبيراً من آلهة القبائل الصغار، ولم يكن لديهم تعاليم دينية منسجمة موحدة، وكانت الطقوس والاعياد الوثنية تحمل طابع العادات

---

[1]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص483؛ فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص51-52.

[2]) توكاريف، الأديان في تاريخ شعوب العالم،ص228.

الشعبية القديمة، كل ذلك اصطدم مع سلطة الامير ڤلاديمير باعتبار الديانة الوثنية تمثل بقايا النظام القبلي.

2.كانت الديانة المسيحية هي ديانة الإله الواحد، وقد وجدت في بيزنطة لمئات السنين قبل ذلك وشكلت منظمة كنسية قوية، وكانت التعاليم الدينية المسيحية تستجيب لمصالح الامير والاقطاعيين بصورة افضل، إذ اكدت الكنيسة في العصور الوسطى ان الامير يحكم الشعب بأمر من الله نفسه، وكان القساوسة يوحون للناس البسطاء: "ان كل عبد يجب ان يطيع سيده"؛ كما كانت الكنيسة تهدد العصاة بالعذاب الدائم في الجحيم، اما المطيعون فكانت تعدهم بالنعيم الدائم في الجنة؛ كما اشارت الكنيسة ان الانتفاض على الامير والسادة خطيئة مميتة، اما اضطهاد الاقطاعيين للشعب فهو عمل قانوني عادل[1].

بعد اعتناق المسيحية بدأ الامراء الروس ورجال الكنيسة بإنشاء الهياكل الفخمة والاديرة الغنية في كل مكان، ولعل كنيسة العُشر هي اقدم بناء حجري في كييف تعود للقرن العاشر الميلادي؛ وقد الحق الامراء الروس بالكنائس المعمدات وهي منشآت خاصة لإرغام الوثنيين على اعتناق المسيحية بالقوة، كما اخذ رجال الكنيسة ينشؤون هياكلهم في اماكن المعابد الوثنية التي هدموها. ولكن يبدو ان المسيحية واجهت في بدايتها مقاومة شديدة من قبل الروس، ففي كثير من مدن واراضي روسيا طرد ابناء الشعب الاساقفة المبعوثين من قبل الامير وقاموا بانتفاضات مستمرة، وتشير القصة الروسية

[1]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص41.

الشعبية الپيلينا، التي تدور حول شخصية البطل الروسي ايليا موروميتس، السخط على سياسة الامير ڤلاديمير الكنسية؛ فالبطل موروميتس الذي اغاضه الامير ڤلاديمير وزع ثروات الكنيسة على فقراء كييف، واقام وليمة تقدير لا على شرف الامراء الاعيان بل للفلاحين الفقراء: "الذين ينتعلون الاحذية من قشور الشجر"[1].

لكن من جانب آخر كان للمسيحية هناك ايجابياتها، فقد اسهم دخول المسيحية في روسيا الى تطوير الثقافة والتعليم، فعقب تحول روسيا الى المسيحية اصبحت الكنيسة الاداة الرئيسة لنقل الحضارة البيزنطية الى روسيا، ولم تكن تلعب دوراً طليعياً في الميدان الديني فحسب، بل في ميادين الآداب والفنون والموسيقى ايضاً، وسرعان ما دخلت القيم المسيحية في صراع مع القيم الوثنية المتخلفة وبدأت تُحرز تفوقاً مشهوداً في هذا الصراع، اذ خمدت الوثنية من دون ادنى مقاومة، اذ اصبح هناك امراء يقرأون الكتب ويجمعونها ويأمرون بترجمة الكتب الكنسية الى اللغة الروسية، وانتشر التعليم وتقلصت الامية، وأنشأت المدارس في الكنائس والاسقفيات؛ كما ساعدت المسيحية في استيعاب الانجازات الحضارية البيزنطية لاسيما في مجال العمارة والرسم والحرف الفنية حيث ظهرت رسوم جدارية رسمها، حسب النموذج البيزنطي، رسامون روس؛ وبعبارة اخرى: لم تكن روسيا فيما يتعلق بالتعليم والثقافة ادنى من الدول السلاڤية الغربية ومن جيرانها الاقربين من السلاڤ. اما العاصمة كييف التي كانت اكبر المدن الروسية آنذاك فقد عُدت واحدة

---

[1]) المصدر نفسه،ص41-42، 54.

من تُحف العصور الوسطى، اذ احصى فيها احد الذين زاروها آنذاك ما لا يقل عن 400 كنيسة، وكانت لها اسوار حصينة، وفيها اسواق عظيمة. كما تأثرت روسيا نتيجة المسيحية بمجموعات قوانين الاباطرة البيزنطيين التي اثرت على القوانين الاقطاعية الروسية، كما ان المسيحية عززت مكانة روسيا الدولية وتوثقت صلاتها مع الدول والشعوب السلاڤية في اوروپا، فقد يرتادها التجار من جميع الاقطار التي كانت لدولة كييف علاقاتها تجارية معها مثل: المانيا، وبوهيميا، وهنغاريا، وبولندا والاقطار الاسكندناڤية وبلدان الشرق، وقد اثارت اعجاب الغربيين لدرجة ان اسقف بريمن عدها: "منافساً للقسطنطينية نفسها"، وان احد كتاب الحوليات الالمان وصفها بأنها اصفى جوهرة في كل العالم الاغريقي[1].

مع ذلك استمرت الافكار الوثنية في المناطق الريفية بارزة من خلال المعتقدات الشعبية بل مورست حتى الشعائر الوثنية لزمن طويل، ولعل وجود معظم الاديرة والصوامع في المدن أو بالقرب منها خلال عصر كييف يُعطي دلالة مهمة على ذلك، وكان دير كاڤس في كييف اكثر الاديرة شهرة واهم المراكز الروحية الروسية في ذلك العهد، وطبقاً للأب ثيودوسيوس وهو من رهبان دير كاڤس فإن اسس الرهبنة هي الصلاة والتواضع والعمل والمحبة والاحسان، وتنفيذاً لهذه المبادئ، ارتدى الاب نفسه ملابس رثة، ولم يتوان في القيام بأي عمل يدوي، وربما كانت النتيجة الاكثر اهمية لدخول المسيحية الى روسيا

[1]) بيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص42؛ التكريتي، مقدمة في تاريخ روسيا الحديث،ص21-22.

القديمة هي الشعور الجديد بالمسؤولية الاخلاقية التي نادت بها اعمال الفرد وحتى افكاره، وقد عزز هذا الاتجاه فكرة الحياة الآخرة ويوم القيامة. وفي بادئ الأمر لم تستطع سوى فئة قليلة هي التي استطاعت ادراك رمزية الطقوس الكنسية ومعانيها، ومع ذلك كان هناك العديد من عناصر العبادة التي راقت بدرجة كبيرة أو صغيرة لأغلبية جموع الناس كقراءة العهدين القديم والجديد، وقراءة التراتيم والصلوات، وكان رسم الايقونات والصور الجدارية، والمناظر الشارحة للكتاب المقدس، قد افاد في توضيح ما يُقرأ، وزودت المواعظ بشرح اضافي[1].

يجب ان يكون واضحاً في الأذهان ان طقوس الصلاة لم تكن تؤدى باللاتينية أو بالإغريقية ولكن بالسلاڤونية الكنسية، وكانت قد ادخلت السلاڤية في الطقوس، وترجم العهد الجديد عن الاغريقية على يد المبشرين البيزنطيين هما الاخوان من سالونيكي قسطنطين كيريل(826-869م) وميثوديوس(815-885م) اللذان قدما الى بلاد السلاڤ كرسولين اغريقيين للتبشير بالديانة المسيحية الذين اصبحا يُعرفان برسولي السلاڤ، واثناء بعثتهما الى موراڤيا الكبرى من قبل الامبراطور الروماني الشرقي ميخائيل الثالث(842-867م)عام 863م ابتكرا لغة كنسية من لغة محكية خاصة بالسلاڤ للتبشير بالإنجيل المسيحي. وقد نشأت هذه اللغة، المعروفة اليوم باللغة السلاڤونية الكنسية القديمة، على أساس لهجة تكلم بها السكان السلاڤ من سالونيكي، وطن هذين الاخوين، لكنها تأثرت باللغة الاغريقية

[1]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص64-65.

وصيغت على غرارها الالفاظ، والتعابير، وبناء الجملة، والاسلوب. وحتى نهاية الالف الاول الميلادي كانت الاختلافات اللغوية بين اقوام السلاف عموماً بسيطة جداً، وغدت السلاڤونية الكنسية القديمة لغة ادبية مشتركة لجميع الاقوام السلاڤية الارثوذكسية. وبعد وفاة ميثوديوس وقعت الكنيسة الموراڤية تحت الهيمنة الفرانكونية(Franconian Language)(اللغة الجرمانية القديمة)[1]، وأبعد مؤيدوه وانصاره، لكن تمت حماية تقاليد كيريل-ميثوديوس من قبل بوريس البلغاري وابنه سيمون الذي ما زال الناس يذكرون عهده(893-927م) بوصفه عصراً ذهبياً للأدب البلغاري. وقد برزت اوهريد وبريسلاڤ مركزين جديدين للغة السلاڤونية الكنسية القديمة، اذ تم الحفاظ هنا على ارث معلمي السلاڤيين، كما تمت ترجمة سلسلة واسعة من الكتابات البيزنطية، وكتابات آباء الكنيسة عن اللغة الاغريقية؛ ومن بلغاريا انتشر مجموع الادب الكنسي القديم الى امارة كييڤ الروسية. وعندما قرر الامير ڤلاديمير في عام 988 اعتناق المسيحية سرعان ما انشأ السلاف الشرقيون ادبهم الخاص على أساس ارث كيريل-ميثوديوس والإرث البلغاري. ولم تكن النصوص الاغريقية المترجمة الى السلاڤونية الكنسية القديمة من قبل الاخوين ومريديهما مختارة بطريقة عشوائية، بل كانت مجموعة كتابات متسلسلة من حيث الاهمية الدينية، وعلى رأسها تلك المطلوبة من اجل العبادة والخدمة الكنسية وهي:

---

[1]) للمزيد من التفاصيل عن اللغة الفرانكونية انظر:

Encyclopedia Britannica, West Germanic Languages.

1.**ليتورگيكــون(Leitourgikon) وهرولوگيــون(Horologion)**: ويتضــمنان الصلوات والترانيم والتسابيح الثابتة على مدار السنة.

2.**تريودي(Triodi) الصوم** : وهي النصوص الخاصة بالتلاوة اثناء فترة الصوم الممتدة خمسون يوماً.

3.**تريودي الفصح**: النصوص الخاصة بالتلاوة اثناء فترة ما بعد الفصح وتمتد خمسون يوماً.

4.**المعزّي(Oktoechos)**: وتتضمن صلوات وترانيم تؤدى في اوقات متغيرة تبعاً للتقويم الكنسي.

5.**نصوص مختلفة**: وهي نصوص للتلاوة من الاناجيل واعمال الرسل ورسائل القدسين ومن العهد القديم.

6.**المزامير(Psalms).**

7.**السنكسار(Synaxarion): المتضمن** اخبار القديسين ومواعظهم(1).

ان المؤســس الحقيقــي للكنيســة الروســية، فهــو الأميــر ياروســلاڤ الحكـــيم(1019-1054م) الـــذي خلـــف الأميـــر ڤلاديميـــر، وكـــان الميتروپوليتان(المطران)(2) الأول في روسيا هو الاغريقي ثيوفيميت الذي قدم من بيزنطة، فالمتروپوليا(المطرانية) الكييڤية كانت تابعة لبطريركية بيزنطة، وكان بطاركة هذه الاخيرة هم الذين يعينون ميتروپوليت روسيا، ولكن الأمراء الروس ما لبثوا ان اخذوا يعينون الميتروپوليتان بأنفسهم؛ فقد اصبحت الكنيسة

---

(1) تشارلز أ. موزر، تاريخ الادب الروسي،(دمشق: منشورات الهيئة السورية للكتاب،2011)،ص10-11.

(2) المتروپوليان: في الكنائس الكاثوليكية الرومانية، والارثوذكسية الشرقية، يمثل رئيس مقاطعة كنسية. انظر: Encyclopedia Britannica, Metropolitan.

الروسية اثناء حكم ياروسلاف اكثر استقلالاً عن بيزنطة، وسرعان ما عين هذا الامير في رئاسة متروپوليا كييف واسقفية نوفگورود القساوسة الروس بدل من الاغريق، وكان ياروسلاف يهدف الى تعزيز هيبة رجال الكنيسة فأنشأ الكنائس والاديرة، وفي فترة حكمه أُنشئت كاتدرائية[(1)] القديسة صوفيا الشهيرة في كييف عام 1051، وقد كانت هذه البناية الحجرية الهائلة محاطة بصفين من الايوانات المكشوفة، وفي داخل الكاتدرائية هناك شرفات للأمير وعائلته، وترتفع فوق الكاتدرائية ثلاث عشرة قبة، وكانت قصور الامراء وقلعة ميتروپوليت كييف تحيط بالكاتدرائية؛ وكانت تزين الكاتدرائية نقوش ذات محتوى دنيوي مثل مشاهد الصيد والعاب المهرجين وصور افراد عائلة الامير، وكانت ارضية الكاتدرائية عبارة عن سجادة رائعة من الفسيفساء[(2)]. كما اخذ الامراء الروس لاحقاً بأنشاء مؤسسات لتعليم رجال الدين، واخذوا على عاتقهم مهمة تمويل الكرسي الاسقفي[(3)]. وهكذا، مع الوقت، اخذ رجال الدين الروس يتكاثرون في الكادر الكهنوتي للبلاد، كما تزايدت اعداد الاديرة في البلاد، وكانت هذه مصدراً للكوادر الدينية والاساقفة، فثمة كثير من ابناء فئات المجتمع العليا دخلت الاديرة. من جانب اخر كانت الحالة الاقتصادية

---

[1]) الكاتدرائية: هي كنيسة مسيحية تحتوي على الكرسي الاسقفي، وبذلك تكون كنيسة مركزية للأبرشية. انظر:
Encyclopedia Britannica, Cathedral.

[2]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص46، 54-55.
Shubin, A History of Russian Christianity, Vol: I, P.37-41, 77.

[3]) الاسقف: هو الراعي الرسمي والمشرف على الابرشية، وقد حافظت الكنيسة الكاثوليكية والارثوذكسية على حد سواء على وجهة النظر القائلة بأن الاساقفة هم خلفاء الرسل اتباع المسيح. انظر:
Encyclopedia Britannica, Bishop.

للكنيسة في تحسن دائم، فقد كان عُشر دخل سكان روسيا كلها يذهب الى الكنيسة، فضلاً عن تقدمات الوجهاء، والاقطاعيين[1]. وخلال عصر ياروسلاڤ ظهر قائد مهم للكنيسة الروسية، هو هيلاريون، وهو اول ميتروپوليتان من اصل روسي تولى مهامه عام 1051، وكان عالماً متعمقاً في الشؤون الكنسية الاغريقية، وعُرف بحكمته العميقة، وقوة بلاغته، ويُستدل عليهما من خلال احدى مواعظه التي ما تزال باقية، والتي تحدث فيها عن اهمية تحول الروس الى المسيحية. وقد عُرف عن هيلاريون حتى قبل ان يصبح ميتروپوليتان عن صرامة حياته الدينية، وفي مقتبل حياته، حفر لنفسه كهفاً في احد الجبال قرب كييف من اجل التأمل والتفكير الروحي، لهذا ربما يُعد مؤسساً للأديرة الكهفية التي ازدهرت في عهد ابناء ياروسلاڤ، واصبحت مؤسسة رائدة في الحياة الدينية الروسية في عصر امارة كييف[2]. كان العمل الرائد وأحد الاعمال الادبية المبكرة التي تُنسب الى هيلاريون هو: "خطبة حول الشريعة والنعمة"، والتي يبدأها هذا الميتروپوليتان بأنها(اي الخطبة): "ليست للجهلاء، بل لأولئك الذين يتذوقون حلاوة الكتب"، ويُستدل من تلك الخطبة ان بناءها النثري مضبوط، اما فكرتها الرئيسة فهي انتصار نعمة المسيح على شريعة موسى[3]. وقد جرى تطوير هذه الفكرة في القسم الأول من الخطبة عبر سلسلة

---

[1]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص483.

[2]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص53.

[3]) ان هذه الفكرة بمجملها مقتبسة عن افكار القديس پولس الذي ناقش بإسهاب فكرة كون الايمان بالمسيح يخلص المؤمن من الشريعة الموسوية، انظر: رومة، 7: 5، 7: 7-23؛ كورنثوس الاولى،15: 55-56؛ تيموثاوس الاولى،1: 8-10، 14؛ غلاطية،3: 21-24. وحول دراسة حديثة لهذه المسألة انظر: اسامة عدنان يحيى، السوما-الهاوما والسيد المسيح: نظرة في معتقدات شرقية قديمة،(بغداد: اشوربانيبال للكتاب،2017)،ص265-276.

من المقابلات الرمزية التي نُظر من خلالها الى الحوادث والشخصيات الواردة في العهد القديم على انها اشارات نبوئية وصور للحقيقة المفصح عنها في الاناجيل بدءً من المقابلة بين هاجر وسارة وفقاً لما جاء في رسالة غلاطية للقديس پولس. ويمثل القسم المركزي للخطبة انتصار النعمة الإلهية عبر المقابلات الخاصة بتأويل شخصية واعمال المسيح، وعددها سبعة عشرة، خمسة منها تتطرق لولادة المسيح، وخمسة اخرى لحياته العامة والسبعة الباقية لآلامه؛ اما القسم الثالث والأخير من الخطبة، يمثل المديح الختامي للأمير ڤلاديمير، ويمجد دخول روسيا في المسيحية. ويتضح من الخطبة المؤثرات البيزنطية عن طريق النظر الى العهد القديم كسلسلة من التجلي أو التمثيل السابق للمسيح، ولخلاص الامم اللاحقة، وبلوغ الارض الموعودة اي ملكوت السماء، لكن ليس عن طريق شريعة موسى بل بنعمة المسيح؛ وان التاريخ بموجب رؤية هيلاريون، لا يسعى لاكتشاف الصلات السببية بين الاحداث والشخصيات، بل ليفسرها لكونها صور لنموذج بدئي سرمدي صممه الله قبل خلق العالم؛ مفهوم التاريخ هنا يدعم ايضاً فكرة تمثيل ڤلاديمير العظيم بكونه مقتدياً بقسطنطين العظيم؛ فما حققه هذا الاخير بين اوساط الاغريق والرومان في اخضاع إمبراطورتيه لله، حققه الاول في اوساط الشعب الروسي، لذا فإن مجدهما السماوي واحد. فضلاً عن اعمال هيلاريون هناك ايضاً كتابات اخرى تعود للقرن الثاني عشر مثل مؤلف: "خطاب الى اخ ناسك" المجهول الاسم؛ ومواعظ الاب ڤيودسي رئيس دير مغارة كييڤ؛ وخطاب الاسقف لوقا جيدياتا من نوڤگورود المكتوبة في المدة ذاتها المسماة أيضاً: "خطبة حول الشريعة

والنعمة"؛ لكن عمل كليمنت سموليياتيتش، الذي اصبح لاحقاً متروپوليت كييف(1147-1155م) والذي حمل عنوان: "رسالة الى القس توما"، من اهم الاعمال بعد عمل هيلاريون؛ في حين يعد اعمال الاب كيريل اسقف توروف(توفي عام 1182) النموذج الابداعي للأدب الروسي في القرن الثاني عشر، وقد كتب كيريل رسائل، وامثولات اخلاقية، وصلوات، واناشيد دينية، وعظات، ودخلت بعض عظاته في التراث الروسي القديم؛ وقد استشهد في مواعظه بفقرات من الكتاب المقدس، ومقاطع من كتابات يوحنا فم الذهب، واخرى من كريلوس الاسكندري، وسمعان ميتافراستس، ودمج كل ذلك في توليفة اقتباسات مع اعادة سبك وصياغة جديدة[1].

سرعان ما تحولت الكنيسة الروسية بالتدريج الى مؤسسة اقطاعية كبيرة جداً، وبمساعدة الامراء استولى رجال الكنيسة على المزيد من الاراضي ذات العدد الكبير من القرى والفلاحين التابعين، وكان القساوسة يجمعون الاموال من المؤمنين اجراً على تأديتهم للطقوس الدينية والتعميد والدفن، وكانت الكنيسة التي تبرر الاضطهاد الاقطاعي، تُبرز نفسها كأقطاعي مستثمر[2].

تشير الدلائل الى ان الكنيسة لعبت دوراً مهماً في النظام الثقافي في روسيا في القرن الحادي عشر الميلادي، ويعود سبب ذلك الى حد ما الى عامل اللغة، ففي مستهل العصور الوسطى كانت الاختلافات بين اللغات السلاڤية كل على حدة اقل عما كانت عليه في العصور الحديثة، وحيث ان السلاڤية الكنسية

---

[1]) موزر، تاريخ الادب الروسي،ص14-16.

[2]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص42.

قد بُنيت على اساس اللهجات المقدونية، والموراڤينية، والبلغارية؛ فقد كان سهلاً ان يفهمها الروس، والحقيقة انها اصبحت اساس اللغة الادبية الروسية، وبينما جُلب العديد من الكتب الى روسيا من موراڤيا وبلغاريا؛ فإن عملية الترجمة كانت تتم في كييف، لذا كان تحت تصرف القراء الروس في القرن الحادي عشر مكتبة ذات تجهيز جيد من الكتب المخطوطة، وعلى الاخص الكتب ذات الموضوعات الدينية[1]؛ فقد وصلت الينا بعض الكتب القديمة بشكلها الاصلي وكانت ذات طبيعة دينية، وان اول روسي وصل إلينا مؤلفاته الدينية كان لوكي زيهياتا(Luki Zhidyata)، الذي اختار ياروسلاڤ الحكيم ليصبح اسقفاً في نوڤگورود عام 1036، والذي بُنيت تحت رعايته كاتدرائية القديسة صوفيا في نوڤگورود[2].وان اقدم مخطوطة وصلتنا من الادب الروسي القديم هي انجيل اوسترومير المتضمن نصوصاً دينية منسوخة من ترجمة بلغارية ومقدمة لحاكم نوڤگورود اوسترومير في عام 1056-1057م. وقد احتلت المرتبة الثانية في سلسلة الكتب المترجمة السير لحياة القديسين وكتابات آباء الكنيسة ولاسيما اعمال يوحنا فم الذهب، وباسيل العظيم، واخيه غريغوري النسسي، وغريغوري النازيانزي، وهذان الاخيران من اعمدة الادب الاغريقي؛ وهذه الكتابات اما ترجمت وصدرت بشكل مستقل، وإما جُمعت في مجموعات مع مقتطفات أو مختارات من مؤلفين آخرين. ووصل إلينا من ادب إمارة كييف الباكر مجموعتان منسوختان في عامي 1073

---

[1]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص65.

[2]) Shubin, A History of Russian Christianity, Vol: I, P.77.

و1076 لمصلحة الامير سڤياتوسلاڤ ابن ياروسلاڤ الحكيم، وتضم قصصاً كنسية وتهذيبية، نُسخت الأولى عن مخطوطات امتلكها سمعان البلغاري واشتملت أيضاً على بحث في الاستعارات للكاتب الاغريقي البليغ جورج غويربوسكوس وقائمة بـ 25 كتاباً سرياً ممنوعاً من قبل الكنيسة، فضلاً عن شروح وتعليقات تدل بوضوح على ان الادب السلاڤوني الكنسي كان قادراً على جذب القارئ لأسباب عديدة حتى في عهد إمارة كييڤ؛ ومن هذه التعليقات ما يلي: "ان كنت تبغي قصصاً عظيمة بإمكانك قراءة سفر الملوك، وان كنت تود قراءة مثيرة ورفيعة عليك بـ سفر اخبار الانبياء، وسفر ايوب، أو سفر يشوع بن سيراخ؛ لكن ان كان طلبك كتب الاناشيد فأقرأ المزامير"[1].

خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين شهدت روسيا تشييد عدد من الكنائس المهمة، وتعد كاتدرائية القديسة صوفيا الحجرية التي أُنشئت بدل كاتدرائية خشب البلوط في نوڤگورود، وكنيسة سباس-نيريديستا، وكاتدرائيتا اوسبينسكي وديميتروڤسكي في مدينة ڤلاديمير، وكنيسة پوكروڤ على نهر نيرل وليس بعيداً عن مدينة بوگوليوبوڤو ابرز تلك الكنائس. وتمتاز كنائس هذا العصر بجدرانها الحجرية البيضاء، وصورها الحائطية، وايقوناتها الرائعة الكثيرة التي تزين داخلها، وابوابها المحفورة التي تشير الى عظمتها وتناسق اشكالها[2]، وفي الوقت ذاته تعكس مدى تزايد اهمية الكنيسة واهتمام الامراء الروس بتشييدها وصرف الاموال في تزيينها وتنظيمها. في الوقت

[1]) موزر، تاريخ الادب الروسي،ص11-12.

[2]) يبيڤانوف وڤيدوسوڤ، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص67.

ذاته كان فن الرسم الروسي في تلك الفترة يخدم مصالح الكنيسة المسيحية، فقد اتسمت اثار الرسم الرائعة مثل ايقونات مدرسة ڤلاديمير-سوزدال الفنية، وصور القديس نيقولا في نوڤگورود بفخامتها[1].

خلال القرن الثاني عشر استمرت الحياة الثقافية بيد الكنيسة فقد كتب الكاهن نسطور في اواخر القرن الحادي عشر حياة القديس ثيودوسيوس وهو راهب مثقف من دير كاڤس؛ يُنسب إليه أيضاً اقدم سجل روسي للحوادث التاريخية يعود للقرن الثاني عشر ويدعى: قصة السنين الغابرة والذي وضعه حوالي عام 1113م، وقد استفاد هذا الكاهن في وضع مؤلفه هذا من سجلات كييف ونوڤگورود التي كُتبت قبل ذلك، ومن بعض الوثائق التاريخية مثل اتفاقيات الروس مع الاغريق، والحكايات الشعبية، ومؤلفات المؤرخين البيزنطيين. ويمكن ان نلاحظ ان هذا السجل التاريخي ينضح بالأيديولوجية الكنسية والاقطاعية، كما رأى هذا الكاهن في كل الحوادث مظهراً من مظاهر الارادة الالهية، وهو ايضاً من انصار سلطة الامير القوية، إلا ان في السجل تعبيراً ساطعاً عن فكرة وحدة الاراضي الروسية، فيدين نسطور بحزم نزاعات الامراء ويدعوهم الى توحيد قواهم لمكافحة العدو الخارجي، كما انه يصف الحوادث في روسيا القديمة وعلاقتها مع التاريخ العالمي[2].كما تلقى الروس من جيرانهم الغربيين والجنوبيين اعمالاً ادبية من جنس الادب الشعبي المتواضع شبيه بالأدب البيزنطي من قُبيل قصص حول حياة آباء البرية، وتواريخ

---

[1]) المصدر نفسه،ص68.

[2]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص53-54؛ فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص65.

الاحداث، واعمال مجهولة المؤلف، وكلها مرتبطة بالكنيسة بشكل أو بآخر، ومن بين تلك الترجمات المنقولة من بلغاريا في مطلع القرن الثاني عشر كان تاريخ يوحنا ملالاس الكاتب السوري البليغ من القرن السادس الميلادي؛ وتاريخ جورج الراهب المسمى: الخاطئ، المؤلف في اواسط القرن التاسع الميلادي؛ ويبدأ كل منهما الحديث من خلق آدم وصولاً حتى زمنه، ويسردان تاريخ الشعب اليهودي وامبراطوريات الشرق وروما والعالم الهلنستي وصولاً حتى الامبراطورية البيزنطية ودورها في خلاص الانسان، وينطوي هذان التاريخان على ثروة معلومات لافتة مختارة من مصادرة متنوعة؛ وفي هذا السياق يعد تاريخ ملالاس مهماً بوجه خاص، لأنه يُدخل في سرده المتشعب قصصاً عن آلهة وثنية وأبطال اغريقيين قدماء، واعاجيب مثيرة، وكوارث رهيبة، حتى يصبح عمله بذلك نوعاً من الادب البيزنطي الممتع والمسلي؛ على العكس من تاريخ الخاطئ الذي تبرز فيه الايديولوجية الرهبانية بشكل اكثر جلاءً، وعلى هذا النحو كان للتواريخ البيزنطية تأثير حاسم في الكتابات الروسية القديمة من حيث الشكل والمضمون الايديولوجي أيضاً[1].

شكل الغزو المغولي(القبيلة الذهبية)(1223-1502م) لروسيا صدمة مؤلمة للكنيسة، فقد هلك في المدن المدمرة العديد من رجال الدين، وأحرقت أو نُهبت وسُلبت الكاتدرائيات، والاديرة، والكنائس، وقُتل ابناء الابرشيات، أو اخذوا رقيقاً، وكان الدمار والخراب كبيرين في كييف لدرجة ان متروپوليا الكنيسة الروسية القديمة لم تستطع ان تؤدي رسالتها كمركز للإدارة الكنسية

[1]) موزر، تاريخ الادب الروسي،ص12.

لعـدد مـن السـنوات، وحتـى صـدور منشـور الاسـتثناء مـن قبـل مـانكو تيمـور(1267-1280م) لرجـال الـدين الـروس لـم يجعـل الكنيسـة تجـد نفسـها واقفة على ارضية صلبة مرة اخرى، وقادرة على اعادة تنظيمها كما في السنين التي مضت أو حتى اصبحت اقوى في بعض النواحي عما كان. ومن بين المهام الشاقة التي واجهت الكنيسة في العهد المغولي كانت الاولى تقديم النصيحة الروحية والدعم الاخلاقي للناس الساخطين سواء من الأمراء أم من العوام، ويرتبط بهذه المهمة، مهمة اخرى، هي استكمال تنصير الشعب الروسي، ويجب التذكير هنا، انه في عصر امارة كييف كانت المسيحية قد ترسخت بقوة بين الطبقات العليا، وسكان المدن غير انها لم تنفذ بعمق الى المقاطعات الريفية؛ وفي العهد المغولي تم تنصير القرويين أيضاً، وهذه المهمة أُنجزت عن طريق جهود مكثفة لرجال الدين، وأيضاً عن طريق نمو الشعور الديني بين الناس انفسهم؛ وقد تزايدت اعداد الكنائس والأديرة في كل المدن والمقاطعات الريفية، والسمة المميزة لحركة الرهبنة الجديدة هي روح المبادرة التي قادها افراد هم عبارة عن شباب متقد بروح متوهجة تلقّى طقوس الرهبنة كي يذهب الى البرية، في اعماق الغابة، ويعمل بمشقة في ظروف بدائية، فضلاً عن العبادة، والصلاة، والتأمل، وقد ادت كوارث الغزو المغولي، وصراع الامراء الروس، زيادة على ظروف الحياة الصعبة بشكل عام الى تطور هذه العقلية، وكان القائد المبجل والرائد لهذه الحركة القديس سرجيوس من رادونيز مؤسس

دير الثالوث على بعد 40 ميلاً شمالي موسكو، وكان تقواه، وورعه الشخصي مصدر إلهام وتأثير للكثيرين حتى لمن لم يقابله قط[1].

من جانب اخر ما ان استقر الحكم المغولي في روسيا حتى ابدى بعض الحكام المغول بعض التسامح إزاء المسيحية ليس بسبب سياسة منتظمة انتهجوها لكن بسبب عدم اهتمامهم بالمسألة الدينية بشكل رئيس، واصبح المواطنون والاجانب المسيحيون الذين عاشوا في اطار دولة المغول يتمتعون بنوع من الحرية الدينية، إذ رغم ان الكنيسة النسطورية[2] قد خسرت كل نفوذ لها بعد تحول الحاكم المغولي بركة خان(1256-1267م) الى الاسلام، إلا ان المبشرين المسيحيين تزايد نشاطهم في دولتهم ولاسيما في بلاد القرم وحوض الڤولگا، مستغلين سياسة التسامح التقليدي للمغول نحو الأديان، والمعروف ان بركة خان سمح للرهبان الفرنسيسكان وتجار جنوى وغيرهم بالقدوم الى بلاده منذ عام 1258م، كما سمح لهم ببناء بعض الكنائس الكاثوليكية في المدن التابعة له، واستخدم الاساقفة كسفراء بينه وبين بيزنطة، وقد رأى الرحالة العربي ابن بطوطة هذه المؤسسات الدينية المسيحية في شبه جزيرة القرم اثناء زيارته لها عام 1325م، ويبدو ان مغول القبيلة الذهبية اتبعوا

---

[1]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص90-91.

[2]) الكنيسة النسطورية: نسبة الى نسطوريوس الذي عاش في القرن الخامس الميلادي ناقش نسطوريوس مسألة الاقانيم، وقال ان في المسيح اقنومين احدهما الهي، والثاني انساني غير ملازمين بالضرورة احدهما للآخر، بمعنى ان المسيح عندما ولد كان انسانا محضا، ثم سكنت فيه الالوهية ولازمته الى حين صلبه وحينئذ فارقته، فلم يكن اذاً على الصليب سوى انسان متألم، ولذلك كان اتباع نسطوريوس يسمون العذراء والدة المسيح وليس والدة الاله، لكن الكنيسة رفضت اراء نسطوريوس وعدتها بدعة بسبب مخالفتها بعض النصوص المسيحية. انظر: احمد عبد الوهاب، اختلافات في تراجم الكتاب المقدس وتطورات هامة في المسيحية،(القاهرة: مكتبة وهبة، بلا. ت)،ص109-110؛ يحيى، السوما-الهاوما والسيد المسيح،ص126-127.

السياسة الدينية لاستقطاب وجذب التجار الأوروبيين، بسبب ان التجارة تمثل العمود الرئيس لاقتصاد بلدهم[1]. وقد قل النشاط التبشيري المسيحي في عهد تدان منكو(1280-1287م) بسبب النزاعات المذهبية بين النساطرة والارثوذكس والكاثوليك من جهة، واخلاص الخان الجديد للإسلام من جهة اخرى[2].ولنا ان نقدم مثال آخر لسياسة التسامح الديني لدى دولة المغول في عهد اوزبك خان(1313-1340م) الذي أظهر الكثير من التحمس في نشر الإسلام وتفانيه في الإخلاص له، إلا انه في الوقت ذاته كان كثير التسامح نحو رعاياه من المسيحيين، فقد منحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية من غير ان يتعرض لهم احد، وذهب في تسامحه الى أبعد من هذا، إذ سمح لهم بالتبشير لدينهم ونشره في بلاده. ومن أهم الوثائق التي تسترعي الانتباه عن التسامح الإسلامي في عهد اوزبك انه منح الميتروپوليتان بطرس عام 1313 مرسوماً جاء فيه: "بمشيئة الله العلي القدير وعظمته ورحمته: من اوزبك الى امرائنا كبيرهم وصغيرهم وغيرهم، ان كنيسة بطرس مقدسة، فلا يحل لأحد ان يتعرض لها أو لأحد من خدمها أو قسيسها بسوء، ولا ان يستولي على شيء من ممتلكاتها أو متاعها أو رجالها، ولا ان يتدخل في امورها، لأنها مقدسة كلها؛ ومن خالف امرنا هذا بالاعتداء عليها، فهو اثيم امام الله وجزاؤه منا القتل. ولندع المطران ينعم بالأمان والبهجة؛ ولندعه أو وكيله يقرر وينظم كل المسائل الكنسية بقلب سليم وفؤاد عادل قويم. واننا نعلن في حزم اننا نحن واولادنا

---

[1]) محمد سهيل طقوش، تاريخ مغول القبيلة الذهبية والهند،(بيروت: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع،2007)،ص43-44.

[2]) المصدر نفسه،ص49.

وامراء دولتنا وولاة اقاليمنا لن نتدخل بأي حال في شؤون الكنيسة، ولا في شؤون المطران، ولا في شؤون المدن، والمراكز، والقرى، والأراضي المخصصة للصيد في البر والبحر، ولا في خلايا النحل؛ ولا في الأراضي، والمراعي، والصحاري، ولا في المدن، والأماكن الداخلة في املاكها الخاصة، ولا في الكروم والطواحين، ولا في مراعي الشتاء، ولا في اي شيء من ممتلكات الكنيسة وامتعتها. ولندع بال المطران في راحة دائمة خالياً من كل تعب أو نصب، ولندع قلبه سليماً قوياً، ولندعه يصلي لله من اجلنا ومن اجل اولادنا وامتنا...واذا فُرض الخراج أو غيره من الضرائب كالرسوم الجمركية، والمكوس، وضرائب الطرق والأراضي غير المزروعة، أو اذا اردنا حشد الجنود من رعايانا، فلا يجمع شيء بالقوة والإكراه من الكنائس التابعة للمطران بطرس ولا على احد من رجال الدين التابعين له، وكل ما يؤخذ من رجال الدين بالقوة والإكراه، يرد إليهم اضعافاً ثلاثة...ولتكن شرائعهم وكنائسهم واديرتهم ومعابدهم محل الاحترام والتعظيم، وكل من يتهم أو يحط من شأن هذا الدين، فلن يُقبل منه أي عذر ولا يطلب العفو، بل يكون جزاؤه القتل؛ وسوف يتمتع اخوة القسيسين والشمامسة الذين يجلسون الى مائدة واحدة وفي دار واحدة بالمزايا هذه نفسها والحقوق"[1]. ويمكن ان نستدل على ان هذا المرسوم لم يكن كلمات جوفاء أو مجرد حبر على ورق، وان التسامح الذي وعد به هؤلاء المسيحيين قد اصبح حقيقة واقعة من الرسالة التي بعث بها البابا يوحنا الثاني والعشرون عام 1318 الى الخان يشكر فيها للأمير المسلم ما اظهره من

[1]) ارنولد، الدعوة الى الإسلام،ص206-207.

عطف على رعاياه المسيحيين، ويُثني على هذه المعاملة الطيبة التي كان اوزبك يعاملهم بها. وكان الروس إذا ادوا الضرائب المفروضة عليهم، تُركت لهم الحرية في اقامة شعائرهم الدينية كما شاءوا[1]. من جهة اخرى نجد انه بعد انهيار ايلخانية ايران عام 1355م، نقلت البعثات التبشيرية القادمة من غربي اوروپا، نشاطها من ايران الى بلاد التتار الشمالية، كما كان الأوروپيون يدعون القبيلة الذهبية؛ بعد ان فقدت الأمل بالنجاح في ايران. وكان البابا يوحنا الثاني والعشرين يعتقد ان اوزبك خان، على الرغم من انه لم يرتد عن دينه الى المسيحية، فإنه يمكن اقناعه بأن يسمح للمسيحيين اللاتين بتأسيس مراكز تبشيرية، وقد بنى قناعته على وجود اشخاص مسيحيين في بلاد الخان من الأمراء وذوي النفوذ والأميرات، فضلاً عن ولي العهد تيني بيك. وقد ارسل البابا طلباً عام 1323م الى الخان يطلب منه اعادة المسيحيين الذين طردوا من السوداق في القرم من قبل المسلمين. وسرعان ما هرعت اعداد من المبشرين والمبعوثين الى سراي والى منطقة الڤولگا ابتداءً من عام 1338م، وأسسوا بطريركية لاتينية في العاصمة المغولية الى جانب البطريركية الارثوذكسية[2].

في عام 1326 أُنشأ في موسكو الكرسي الميتروپوليتاني، وانتقل مركز الكنيسة الأرثوذكسية الروسية الى هناك، ولكن بقي تعيين الأمير للمتروپوليتان يحتاج الى مصادقة بيزنطة، لذا حاول الأمير ديمتري الاول(1322-1326م) امير تفير تغيير هذا النظام، لكن بعض الاساقفة قاوموا سعيه، بالمقابل اخذت

[1]) المصدر نفسه،ص207.

[2]) طقوش، تاريخ مغول القبيلة الذهبية والهند،ص70.

السلطة المركزية تكسب مزيداً من القوة، ومع تزايد قوتها كان الأساقفة يخضعون شيئاً فشيئاً لسلطة متروپوليت موسكو[1]. وقد شهدت هذه الفترة ايضاً تطوراً معمارياً في الكنائس الروسية، اذ تم تشييد تشييد كاتدرائية الصعود في 4 اب 1326 في عهد ايڤان الأول(1325-1341م)[2].

ظلت الكنيسة خلال الحكم المغولي اكثر مما في عصر امارة كييڤ عاملاً رئيساً في نمو الادب والفنون، فظهرت مواعظ الاساقفة، وحياة القدسين، فضلاً عن حياة الامراء امثال الكسندر نفسكي الذي استحق التمجيد، وقد كُتبت هذه السير على شاكلة حياة القديسين، وكانت الفكرة الرئيسة لهذه الاعمال ان النير المغولي كان عقاباً إلهياً عن خطايا الشعب الروسي، ولم تستطع سوى المسيحية الحقيقية من ان تقود الروس الى الخلاص من مصيبتهم؛ وكما في عصر كييڤ، فقد لعب رجال الدين زمن الحكم المغولي دوراً مهماً في جمع التواريخ الروسية وتصنيفها، وربما نلمس دليلاً على الدور الرئيس لرجال الدين في الادب في حقيقة ان اكثر القصائد شهرة في ذلك العهد وهي(زادونشينا/Zadonshina) اي: "مآثر وراء الدون" التي تمت الاشادة فيها بمعركة كوليكوڤو كانت من عمل احد القساوسة[3]؛ ومن وجهة النظر الادبية فهي تقليد لعمل من القرن الثاني عشر وهو انشودة حملة الأمير ايغور، والتي كما نعرف وضعها احد اعضاء الدروزينا(حاشية الامير الروسي). والمظهر المهم

---

[1]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص483.

[2]) Shubin, A History of Russian Christianity, Vol: I, P.97.

[3]) حول نص معركة كوليكوڤو كما وردت في زاودنشينا انظر: يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص89-91.

لعملية الاحياء الديني في روسيا زمن المغول كان الفن الكنسي، فالفنون المعمارية، نالها الخراب والدمار في كل مكان عدا نوفگورود بسبب تدهور حرفة البناء الكنسي نتيجة لتسخير المغول للحرفيين المهرة، ولكن من جانب اخر دخل فن التصوير الديني في شكليه الجصي والايقوني فترة تفتح وازدهار في كل من نوفگورود وموسكو، ولعب الرسام الاغريقي الكبير ثيوفانس دوراً هاماً في النهضة الفنية، فقد امضى الثلاثين سنة الاخيرة من عمره، ومن حياته الفنيه في روسيا، واثارت شخصيته وروائعه الفنية اعجاب الروس، فاستفاد منه الرسامون كثيراً، لكن في الوقت ذاته، لم يحاول هؤلاء الرسامون تقليد ابداعه الفردي والدرامي، اما اكبر رسامي روسيا في هذا العهد فكان اندريه روبليف الذي امضى شبابه في دير الثالوث المقدس، وفيما بعد رسم الايقونة الشهيرة ثالوث العهد القديم لهذا الدير، وتكمن ابدعات روبليف في الهدوء الساكن وانسجام الالوان في الترتيب، ويوجد تشابه اكيد بين اعماله واعمال معاصريه مثل الرسام الايطالي فراجيليكو[1].

ان الكنيسة الروسية كفرع من الكنيسة البيزنطية قد تأثرت بالأزمة الدينية والسياسية الخطيرة التي ظهرت في الشرق الأدنى بين عامي 1350-1450؛ ففي عام 1350 عبر التُرك الدردنيل وحصنوا انفسهم في غاليبولي ومن هناك بسطوا بسرعة سيطرتهم على البلقان وطوقوا ما تبقى من الامبراطورية البيزنطية، وفي عام 1400، اخضع الترك كلاً من بلغاريا وصربيا ووجد الامبراطور البيزنطي نفسه في وضع ميؤوس منه ولم يعد له من امل سوى

[1]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص92-93.

طلب المساعدة من الغرب، واستعد البابا للدعوة الى حملة صليبية ضد الترك شريطة اعتراف الكنيسة الاغريقية بسيادة البابا، ودعا المجلس المسكوني للانعقاد في ايطاليا، وهو الذي توجه اليه البيزنطيون بالنداء لمناقشة امكانية اتحاد الكنيستين، وصُدّق على اعلان الاتحاد من قبل المجلس في فلورنسا عام 1439 مع اعتراض صوت واحد بين اساقفة الكنيسة الاغريقية، ومع ذلك فإن مجموعة كبيرة من رجال الدين في القسطنطينية ومعظم السكان رفضوا قبول الاتحاد، لقد كان هذا انشقاقاً واضطراباً نتيجة لاختلاط الدين بالسياسة الدولية، فمن الجانب السياسي فشلت الحملة التي دعا اليها البابا بشكل مزرٍ عام 1444، اذ بعد تسع سنوات(1453) انقض الترك العثمانيين على القسطنطينية وانهارت الإمبراطورية البيزنطية، وحُولت كاتدرائية القديسة صوفيا الى مسجد، ولكن في الوقت ذاته لم يحطم العثمانيين الكنيسة الاغريقية كمؤسسة بل سمحوا باختيار بطريرك جديد، وتبرأ الاغريق حينئذ من فكرة الاتحاد وعادوا للكنيسة الارثوذكسية. اما الكنيسة الروسية فقد مُثلت في مجلس فلورنسا بـ ايزيدوروس، وهو اغريقي أو سلافي متأغرق، تم ترسيمه على يد بطريرك القسطنطينية عام 1437، وقد سمحت السلطات الروسية له بالحضور الى ايطاليا رغم الشكوك الكبيرة حول الاجتماع، وفي المجلس اثبت ايزيدوروس انه داعم قوي للاتحاد ورُسم كاردينالاً، وقد رجع الى موسكو عام 1441، وقرأ اعلان الاتحاد في قداس ديني في الكاتدرائية الرئيسية لموسكو، وهذا ما سبب هياجاً واضطراباً بين رجال الدين الموسكوفيين الذين رفضوا قبول الاتحاد، لذا امر الگراندوق باسيل الثاني باعتقال ايزدوروس

الثاني اعتقالاً مؤقتاً ووضع في الإقامة الجبرية في دير، ثم اطلق سراحه لاحقاً وسافر الى روما ثم أُرسل الى القسطنطينية موفداً من البابا وأُخذ اسيراً من قبل العثمانيين عام 1453م، ولم يكن الروس يعرفون ماذا يفعلون فيما بعد اذا ما تم تخليص ايزيدوروس، اذ لم تكن لديهم نية الانفكاك عن كنيستهم الام القسطنطينية لكنهم في الوقت نفسه كانوا يعدونها كنيسة منشقة، وقد انتظروا عبثاً لسنوات عديدة ان تعود الارثوذكسية في بيزنطة، واخيراً دعا باسيل الثاني الى عقد مجلس من الاساقفة الروس لاختيار ميتروپوليت جديد، وهكذا اصبح الاسقف ايونا وهو اسقف متمرس، واسع الاطلاع، أول رئيس للكنيسة الروسية المستقلة عام 1448م، ومع ذلك لم يكن هذا العمل ليعني انفصالاً نهائياً عن القسطنطينية، بل عُد هذا الاجراء خطوة طارئة، وفُسر على انه متى ما عادت الارثوذكسية في بيزنطة فإن مباركة البطريرك ستراعى مرة اخرى فيما يتعلق بالمرشحين المقبلين لـ أبرشية[1] موسكو، ولكن عندما اعيدت الارثوذكسية مرة اخرى في القسطنطينية عام 1453، لم يتم تقبلها في روسيا كما هو مخطط، اذ كانت الظروف السياسية يجعل تقبلها بالنسبة للروس امراً صعباً، اذ كانت الكنيسة هناك تخضع الى بطريرك يخضع للسلطة العثمانية، وهكذا اصبحت الكنيسة الروسية تدار ذاتيا نتيجة واقع الاحداث السياسية وليس نتيجة اية معارضة متعمدة للبطريرك الروسي[2].

[1]) الأبرشية: وهي منطقة اقليمية يديرها الاسقف. انظر:

Encyclopedia Britannica, Diocese.

[2]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص484؛ فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص91-92.

شهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين تزايد الارتباط بين الكنيسة والسلطة بعد بروز سلطة امراء موسكو واخذ رجال الكنيسة يؤكدون على فكرة الاصل الالهي لسلطة الامير الكبير في موسكو، وكانت هذه الاساطير والخرافات ترفع من هيبة امراء موسكو في نظر ابناء الشعب وتقوي مكانة الدولة الروسية بين الدول[1]. ولكن علينا ان ننتبه الى ان هناك موقفان مختلفان تجاه دور الكنيسة في المجتمع قد تبلورا بين القادة الروس الدينيين في اواخر القرن الخامس عشر؛ اولهما: يمكن ان يُدعى مثالياً وروحياً، والآخر: كان عملياً واجتماعياً، وقد ابقت المجموعة الاولى على تقاليد الرهبنة الروسية التي ترجع الى النصف الاخير من القرن الرابع عشر والتي تعززت بواسطة التدفق الجديد للصوفية البيزنطية، والمثال البارز على هذه المجموعة هو الراهب نيل سورسكي الذي اقام ديره في شمال روسيا وراء الڤولگا بالقرب من بيلوزيرو، وطبقاً لنُساك ما وراء الڤولگا، كما سُمي هو واتباعه، فإن اداة نقل الدين هو الصلاة والتأمل، وان الخلاص يمكن ان يُنجز فقط من خلال تجديد القوى الروحية الداخلية، وقد استهجن نُساك ما وراء الڤولگا قيام الكنيسة باكتساب الاراضي والثروات، ولم يطالبوا بحماية الدولة، بل ارادوا ان تكون الكنيسة حرة طليقة تماماً من تدخل الدولة، وعلى خلاف هؤلاء، هناك مناوئوهم اليوسيفيون نسبة الى قائدهم جوزيف رئيس دير فولوكولاسك، الذين شددوا على اهمية الخدمات الاجتماعية التي تنجزها الكنيسة، فهؤلاء جادلوا، وطالبوا بالثروة من الدولة، فضلاً عن الحماية، وتبعاً لهم، فهؤلاء

[1]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص112.

اليوسيفيون كان مستعدون لتقديم مباركتهم الكاملة للدولة[1] . من جانب آخر شهد القرن الخامس عشر ولادة افكار مضادة للكنيسة ورجالها في حركة عرفت من قبل رجال الكنيسة بحركات الهراطقة الذين انكروا الكنيسة الرسمية، ولم يعترفوا بتسلسل آباء الكنيسة، وادانوا طمع وشره رجال الدين وعيوبهم الاخلاقية. وكانت حركات الهرطقة تتضمن احتجاج الجماهير على الاضطهاد الاقطاعي الذي كانت الكنيسة جزء منه، ومن تلك الحركات حركة جديدة عُرفت باسم هرطقة المتهودين، وقد ابتدأت في نوڤگورود، واثارتها زيارة العالم اليهودي زكريا بن هارون هاكوهين الكييفي عام 1471م، وهو باحث في الفلسفة والفلك، وقد تأثر بعلمه اعداد من اهالي نوڤغورود من بينهم قسيسان اهتما باليهودية والفلك والتنجيم، وفي عام 1478 قابل ايڤان الثالث(1462-1505م) القسيسين المتهودين فاحبهما ودعاهما الى موسكو، وقد نجحا في تهويد الكثير سواء بين رجال الدين ام بين موظفي الدولة، ولم يكن هؤلاء المتهودون قد قبلوا اليهودية بالكامل، اذ استفاد البعض من الادب اليهودي لنقد العقائد المسيحية المختلفة، وخصائص معينة في نظام الكنيسة الروسية وممارساتها، ومن بين تلك الاشياء التي وُجهت اليها الانتقادات الاعتراض على استعمال الايقونات؛ وصحة امتلاك الكنيسة الضياع والعقارات، لذا نجد ان رجال الدين لاحقاً عندما تنبهوا الى خطر تلك الحركات

[1]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص115.

كما سنرى اخذوا يطالبون بأن يعاقب الهراطقة: "بالإعدام القاسي والموت"، وفي نوفگورود نُفذت احكام الاعدام بالهراطقة فعلاً[1].

خلال القرن الخامس عشر كان اعظم الفنانين الايطاليين الذين جذبهم ايڤان الثالث هو ارسطوتالي فيوراڤانتي(Aristotele Fioravantni) البولوني الذي برع بوصفه معمارياً ومهندساً، وقد قدم الى موسكو عام 1475، وكُلف ببناء الكنيسة الرئيسة في موسكو وهي كاتدرائية الظهور في الكرملين، وقد أعطي تعليمات محددة بأن تكون الكاتدرائية الجديدة على التصميم السزدالي المشابه لكاتدرائية الظهور في ڤلاديمير التي تعود الى القرن الثاني عشر الميلادي، وقد درس فيورڤانتي الاشكال المعمارية لكاتدرائية ڤلاديمير، وكذلك الكنائس الاخرى في سزداليا(احدى المدن الروسية)، ووجد فيها تجانساً مع ذوقه، وقد كانت الكاتدرائية الرائعة التي بناها في الكرملين اكبر كثيراً من حيث الحجم الكنائس السزدالية، ولم تكن مجرد نسخة مطابقة بل كانت انعاشاً لروح تلك الكنائس[2].

---

[1]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص112؛ فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص115.

[2]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص118.

Francis D. K. Ching, Mark Jarzombek and Vikramditya Prakash, A Global History of Architecture,(New Jersey, 2011),P.500-501; Joan Markessini, Around The World of Orthodox Christianity: Five Hundred Million Strong The Unifying Aesthetic Beauty,(Pennsylvania,2012),P.25;

ومن اجل دراسة معمارية مفصلة عن كاتدرائية الظهور انظر:

T. V. Tostaya, The Assumption Cathedral of the Moscow Kremlin: Fir the 500[th] Anniversary Russian Culture,(Moscow,1979).

5

الكنيسة المسيحية في القرن السادس عشر

خلال القرن السادس عشر غدا اساقفة الكنيسة الارثوذكسية اقطاعيين كباراً، وكانت الكراسي الاسقفية تؤدي وظائف قضائية، وتحت تصرفها كادر بيروقراطي ضخم، من جامعي العشر، والكتبة، وناظري الضياع وما الى ذلك[1]؛ وقد تميزت حياة رجال الدين بالجشع الفائق وحب المال فأضعف الطمع المتزايد والحياة الفاسقة عند القساوسة والرهبان مكانة الكنيسة في نظر المسيحيين[2].

ادى تزايد النفوذ الكنسي من جهة، وتزايد الاملاك الكنسية، الى تزايد نشاطات الهراطقة كما اسمتهم الكنيسة، اي الناس الذين لم يتفقوا مع تعاليم وشعائر الكنيسة الرسمية؛ وكانت تلك الحركات متنوعة في افكارها، ولكن بشكل عام كان الهراطقة ينادون بالعدالة فقد بشر ماتقي باشكين مثلاً بأن جميع الناس اخوة، ولذلك لا يجوز للأغنياء ان يستعبدوا الفقراء، وكانت تلك الآراء تضر بمصالح الكنيسة الاقطاعية، لذا اخذ رجال الدين بمهاجمة باشكين وحبسوه في الدير؛ كما ان ڤيودوسي كوسوي الذي كان في الاصل من الارقاء، كان ينادي بالمساواة بين الناس جميعاً بغض النظر عن قومياتهم ومعتقداتهم الدينية، ودعا كوسوي اتباعه ان لا يترددوا على الكنيسة ولا يصلوا ولا يصوموا، وانكر بشكل قاطع تعاليم الكنيسة حول الآخرة وخلود

---

[1]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص484.

[2]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص133.

الروح، وكان يرى ان كل ما يملكه المسيحيون الصادقون في ايمانهم يجب ان يكون مشاعاً بينهم؛ لكن ملاحقات رجال الكنيسة لـ كوسوي اجبرته على مغادرة البلاد[1].

كانت من اخطر حركات الهراطقة هي حركة المتهودين التي ظهرت في سبعينيات القرن الخامس عشر كما رأينا، وكان اليوسفيون اول من نبه الى انتشار حركة التهويد ودعوا الى اجراءات قوية لكبحها، وقد نوهوا بمحاكم التفتيش الاسبانية كأحسن وسيلة يمكن استخدامها، وفي المقابل حاول رهبان ما وراء الفولگا ان يبرهنوا على ان الاقناع هو الاسلوب المسيحي الصحيح لمقاومة الهرطقة، ولسنوات عديدة، تردد ايڤان الثالث في العمل ضد المتهودين، ومن وجهة النظر العملية دعم ايڤان الموقف السلبي لكلا الفريقين: رهبان ما وراء الفولگا والمتهودين في نظرتهما تجاه الاملاك الكنسية، وحوالي عام 1500 قام ايڤان بمصادرة اراضي الكنيسة في نوڤگورود، وخطط ان يتبع ذلك بسياسة مشابهة في موسكو، ومع ذلك، فعند اجتماع المجلس الكنسي عام 1503 اثبت اليوسفيون انهم الاغلبية، وقبل ايڤان على مضض التخلي عن مخططاته فقابل ذلك اليوسفيون بتقديم الدعم الكنسي الكامل لحكم ايڤان الارستقراطي. وفي عام 1504 اجتمع المجلس الكنسي في جلسة اخرى مع سيطرة كاملة لليوسفيين، واتخذ قراراً باجتثاث كل انواع الهرطقات، واوصى بحرق زعماء المتهودين وتبع هذا القرار سيل من الاعدامات، وخلال سنوات قليلة كانت هذه الهرطقة قد اخمدت، ومنذ ذلك التاريخ احكم اليوسيفيون

---

[1]) المصدر نفسه، ص134.

سيطرتهم الكاملة على ادارة الكنيسة الروسية، فيما اخذ تأثير رهبان ما وراء الڤولگا في التلاشي بالتدريج بالرغم من ان حقيقة عدداً من البويار(الاقطاعيين) كانوا يتعاطفون مع تعاليمهم[1].

نتج عن حركة الهرطقة اثار على الكنيسة والحكومة على حد سواء، وسعت كلا السلطتين الى اجراء تغييرات داخلية في مؤسستيهما من اجل اصلاحهما من جانب، وتعزيز دورهما في المجتمع من جانب ثانٍ، ومن تلك الاجراءات:

1.ادرك كلاً من الحكومة الموسكوڤية، واساقفة الكنيسة سواءً أ كانوا يوسفيين ام غير ذلك، ان افتقاد الثقافة بين رجال الدين الروس كان احد الاسباب في انتشار الهرطقات، وقد بدا ان التعاون سواء مع علماء الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أو مع الاغريق لترجمة المزيد من الاعمال الدينية أمر مرغوب فيه، وان كانوا يفضلون بالطبع الاغريق، وفي عام 1516 دُعي الى موسكو عالم الانسانيات الاغريقي البارز ميخائيل تريپولس المعروف باسمه الرهباني ماكسيم حيث امضى بقية حياته في موسكو بسبب عدم السماح له بمغادرة روسيا، وقد ترجم عدداً من الاعمال اللاهوتية البيزنطية الى السلاڤية، وصحح بعض كتب الكنيسة التي تُرجمت من قبل، ونصح ايضاً برجوع الكنيسة الى حظيرة متروپوليا القسطنطينية التي كان اليوسيفيون يشمئزون منها كثيراً، ومن ناحية اخرى صنع ماكسيم اصدقاء له من بين رهبان ما وراء الڤولگا الذين ابدوا اعجاباً كبيراً بعلمه وشخصيته.

---

[1]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص484؛ فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص115-116.

2.لكي يُعزز تأثير الكنيسة اخذ رجال الدين يعدون الامراء قديسين فضلاً عن الرهبان؛ وبمشاركة الميتروپوليتان ماكاري وُضعت القراءات الشهرية تهذيباً للمؤمنين، وهي كُتب تتضمن: "سير حياة القديسين"، والقواعد الكنسية، وكانت هذه الكتب تبشر بالإذعان للكنيسة وضرورة انصياع العبيد لأسيادهم. ومن الكتب الكنسية ايضاً كتاب دوموستروي(تدبير المنزل) الذي يتضمن نصائح لا تختلف عن تلك السابقة، اذ يدعو مؤلف الكتاب الرعية لخدمة اسيادهم بإخلاص وتفانٍ والمحافظة على ممتلكاتهم؛ اما الاسياد فيدعوهم الى الاقتصاد والبخل، وان رب البيت والعائلة يجب ان يعلم خدمه واطفاله ليس بالكلمات فقط، بل بالضرب ايضاً، ولكن: "بعدم ضربهم على الاذن أو الوجه لكل ذنب"، بل: "ضربهم بالسوط حسب الذنب"، و: "الضرب بأدب مع الامساك بأيديهم". إلا ان كتاب دوموستروي تضمن نصائح مفيدة عن المحافظة على نظافة المنزل والمطبخ والادوات المنزلية، وعن اعداد الطعام، والمشروبات، وعن الاعتناء بالملابس وصحة الانسان.

3.استلزم انتصار اليوسفيين تحديداً وتعريفاً جديدين لدور الحاكم والكنيسة الموسكوفية في العالم المسيحي، ولهذا السبب، برزت فكرة روما الثالثة، وكان بروزها تكيفّاً مع المبدأ البيزنطي الذي يقوم على اساس ان الكتاب البيزنطيين حاولوا ان يبرهنوا على انه في الفترة المبكرة من العصور الوسطى انتقلت الدولة المسيحية من روما الى القسطنطينية، اي روما الثانية، والآن مع انهيار الامبراطورية البيزنطية على يد العثمانيين فإن موسكو في رأي بعض الكتاب الروس اصبحت روما الثالثة بالمعنى السياسي والديني، فضلاً عن انها آخر

روما، اي لن يكون غيرها فيما بعد، لذا كان تتويج ايفان الرابع امير موسكو الكبير عام 1547 قيصراً على كل روسيا يسير في الاتجاه نفسه مع هذه الفكرة. وكقيصر احتفظ ايفان الرابع نظرياً بالسلطة المطلقة، لكن في الممارسة العملية كان هو وخلفائه مقيدين بالسلطة التقليدية للكنيسة الارثوذكسية ومجلس البويار. ومن جانب آخر وكي يكتمل تأسيس روما الثالثة اتخذ ميتروپوليتان موسكو لقب البطريرك، وهذا ما حدث عام 1589 في عهد ثيودور الاول، كما سنرى، وكان الاسقف جول اول بطريرك روسي.

4. اعتقد الذين صاغوا فكرة روما الثالثة في بداية الامر ان نهاية العالم اقتربت، وحان يوم الحساب، وكان ذلك مجرد محاولة منهم كي تبقى المسيحية الارثوذكسية حية بوصفها ملجأً اخيراً لهذه النهاية، لكن اتباعهم اقل تشاؤماً مؤملين في السعادة الابدية المسيحية، وايضاً لم يكن يقلقهم سوى مصير المسيحية الارثوذكسية، لذا دعوا الى عدم خوض حروب صليبية ضد العالم الخارجي، وراموا قبل كل شيء تنظيف بيتهم، وتحسين نظام الكنيسة الروسية، ونتيجة لذلك دُعي المجلس الكنسي الى الاجتماع عام 1551 وهو المعروف بـ ستوغلاف(الفصول المئة) لأن محاضر جلساته قُسمت الى مئة قسم، وقرر هذا المجلس انهاء المفاسد المختلفة في الإدارة الكنسية، وتحسين المعرفة، ونصح باستعمال النسخ المصححة من كتب الكنيسة فقط. وقد اشارت تلك القرارات الى الوضع المتردي للكنيسة: "ان الخوارنة(جمع خوري اي نائب الاسقف) والساكريستو(الحافظ لغرفة المقدسات) في حالة سُكر دائم في الكنيسة، ويقفون دون وجل يتبادلون الشتائم، الأمر الذي يُهلك أرواح

المؤمنين سُدى...". كما حرّم المجمع على المؤمنين العزف على الآلات الموسيقية، وحلق اللحى، واللعب بالشطرنج، وقراءة الكتب ذات المحتوى غير النقي، وتنظيم عروض الألعاب ومشاهدتها، كما حرّم عليهم أيضاً إقامة صلات مع الاجانب الذين عدوهم هراطقة وملحدين.

5.ان بطريركية موسكو لم تتأسس إلا بعد عهد ايڤان الرهيب، اذ لم يتعجل هذا في انشاء منافس لسلطته، فقد تأسست عام 1589م في عهد القيصر ثيودور الاول(1584-1598م)، وقد أسسها هو وزوجته القيصرة ايرينا واخوها بوريس غودونوف، وتقررت المسألة برمتها دون مشاركة رجال الدين، واقتصر مشاركتهم على انتخاب المجمع الكنسي الميتروپوليتان ايوڤ وهو من انصار بوريس غودونوف بطريركاً لروسيا.

6.لمنع الأخطاء في النسخ الدينية قام الميتروپوليتان ماكاري بإنشاء مكتب طباعة في موسكو عام 1553، وكانت قد بدأت طباعة الكتب السلافية في پولندا عام 1491، وفي بوهيميا عام 1515، وفي ليتوانيا عام 1525، ولكن في موسكو كان التطور بطيئاً، وهذا المكتب أُغلق بعد وفاة ماكاري عام 1563، ومع ان مطبعة جديدة أُنشئت عام 1568 إلا انه من الصعوبة بمكان حصر عدد الكتب التي نُشرت في موسكو قبل عام 1600[1].

بقت الثقافة في روسيا مرتبطة خلال القرن السادس عشر بالكنيسة والسلطة، إذ بقي فن الرسم مرتبط بالكنيسة ويشهد على ذلك كاتدرائية

---

[1]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص484؛ يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص133-134، 137-138؛ فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص116-117؛

Encyclopedia,Britannica, Tsar.

بلاگوڤيشينسكي التي كانت مزينة بروائع الصور الجدارية[1]؛ كما ان الجدل الديني والافكار الجديدة عن الكنيسة والدولة تم التعبير عنه في ادب غزير من الكتيبات والرسائل الانجيلية والبحوث. كما ظل فن البناء مرتبط بالقصر والكنيسة، وفيما يخص الاخيرة، فبعد عام 1530م فإن تصميماً معمارياً جديداً اصبح شعبياً في موسكو، ومثّل انقطاعاً تاماً عن التقاليد البيزنطية، واصبحت السمة المميزة للكنائس التي بُنيت في هذه الفترة هو البرج، ويعلو الكنيسة سقف هرمي أو في بعض الاحيان مخروطي الشكل، وهذا الشكل اصبح يُعرف بالكنائس الخيمة، وهو ما يوحيه شكل السقف، ومن الامثلة الرائعة على هذا التصميم كنيسة قرية كولومينسكوي، وهي تبعد حوالي 12 ميلاً عن موسكو وقد انتهى العمل فيها عام 1532، ويُنسب الى الوسيونو، وفي رأي مؤرخي الفن فإن التصميم كان تعديلاً عن المباني الخشبية لشمال روسيا، كما توحي بتأثير عمارة اسيا الوسطى من بينها العمارة الهندية على فن العمارة الموسكوڤي العائد للقرن السادس عشر[2]. ومن النماذج الخاصة العائدة لهذا القرن كاتدرائية شفاعة السيدة العذراء المعروفة باسم باسيليكا القديس باسيل، وقد بُنيت في الساحة الحمراء في موسكو بين عامي 1555-1560م، وشيدها المعماريان الروسيان بارما وبوستنيك، والاخير من مدينة بسكوڤ، والكاتدرائية عبارة عن مجموعة قباب رائعة متوجة بقباب بصلية الشكل وفيها برج مركزي يرتفع اعلى بكثير عن القباب، وشبيه بالخيمة، والزخارف كثيرة،

---

[1]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص135.

[2]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص117-119.

وأول انطباع تحدثه الكنيسة لدى المشاهد انها من خيال حكايات الجن الروسية مع لمسات مضافة من عصر النهضة الايطالية[1].

لكن في الوقت الذي ارتبطت الفنون الرسمية بالكنيسة ابدى رجال الكنيسة مقاومة شديدة للفنون الشعبية، فقد ولدت في الوسط الشعبي الروسي مشاهد مسرحية بشكل رقصات جماعية، ومسرح للدمى حيث يمثل فيها المهرج المرح بيتروشكا، وسرك الدببة، كما برزت العاب المهرجين والممثلين الشعبيين المحترفين، لكن رجال الكنيسة ادانوا تمثيل أولئك المهرجين على اعتباره امراً شيطانياً، وذنباً يجر الناس الى الجحيم بصورة مباشرة، غير انه رغم مقاومة الكنيسة لهذا النمط من الفن فإن مسرح المهرجين انتشر انتشاراً واسعاً في روسيا[2].

---

[1]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص119؛

Markessini, Around The World of Orthodox Christianity,P.26.

[2]) يبيفانوف وفيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوفييتي،ص135.

6

ازمات الكنيسة في القرن السابع عشر

خلال القرن السابع عشر واجهت الكنيسة اخطر المشاكل في تاريخها ولعل اهمها كانت:

❖ **الانتفاضة الفلاحية.**

ظلت الكنيسة ورجال الدين يسعون الى تعزيز سلطتهم الاقطاعية مما دفعهم للوقوف بوجه اي حركة تقلل من تلك الامتيازات، وهذا ما نجده في موقفهم تجاه اضخم انتفاضة فلاحية في روسيا التي عُرفت بالحرب الفلاحية بين عامي 1606-1607م بقيادة رجل يدعى ايفان ايسايفيتش بولوتنيكوف، فقد كتب البطريرك گيرموگين في 20 تشرين الثاني 1606 عندما بدأت الانتفاضة: "اليوم ثارت الاعشاب الضارة(يقصد الفلاحين الثائرين) المجللة بالذنوب بعد ان نسيت مخافة الله وهي تريد ابتلاع سنابل القمح(اي الطبقة العليا)؛ لقد اجتمع قُطاع الطرق واللصوص والارقاء الهاربون من البويار والدوفريان في اوكرانيا سيفيرسكايا المهانة التي هلكت من قبل، واتفقوا مع اللصوص القوزاق الذين تنكروا لله والعقيدة الارثوذكسية وتبعوا الشيطان وانصاعوا لإيحاءاته، فأهانوا مدن اوكرانيا سيفيرسكايا بمختلف الاعمال الشريرة، ووصلوا الى ارض ريازان والمدن الاخرى وهناك حقّروا الايقونات المقدسة والكنائس المقدسة ونهبوا البيوت وقتلوا الكثيرين....(وبعد ذلك) وصلوا الى مدينة قيصر موسكو، ثم الى كولومينسوكويه، وتوقفوا(هناك) واخذوا يبعثون بنشراتهم اللصوصية الى المدن يدعون فيها المدقعين وخدم

البويار والدوفريان ومختلف الاشقياء للقيام بشتى الاعمال الشريرة والقتل والنهب"[1]. كما اشار مصدر اخر عن موقف الرهبان من الانتفاضة: "...لقد خرج الشيطان نفسه من الظلمات يحمل الشرور، فأثار الكثيرين وخاصة اعداء الإله الكافرين...ايليا غورتشاكوف، ايڤان ايسايڤيتش بولوتنيكوڤ، وادعى ايليكا المجنون بأنه الأمير بيوتر ابن جلالة القيصر العظيم...فيودور ايڤانوڤيتش...واعتبره جميع سكان تلك المنطقة(الامير الحقيقي) وعلى اثرهم سكان اوكرانيا سيڤيرسكايا وجميع المتمردين...التحقوا به، واحتلوا كثيراً من المدن التي انتقلت الى جانبه...ومنها مدن: بوتڤيل، وريلسك، وتشيرنيغوڤ، وموروم، وكورسك، وستار، ودوب، وكرومي، وجميع مدن اوكرانيا سيڤيرسكايا، ومناطق شاتسك، وريازان، وجميع املاكها واراضيها. واجتمع الجيش العظيم ووصل الى سيربوخوڤ؛ اما سكان سيربوخوڤ...فانتقلوا جميعهم الى جانبهم، وكذلك فعل سكان كالوگا، وكولومنا...وعندما عرف القيصر ڤاسيلي شويسكي بذلك ارسل رسله الى مدن واراضي دولته كلها لجمع الجيش، وأرسل كثيراً من القادة العسكريين مع قوات كبيرة لملاقاة قطاع الطرق الغفيرين، وهكذا وصل الثوار الى دير سيمونوڤ الذي كان فيه قناصة ارسلهم القيصر ڤاسيلي من موسكو لحماية الرهبان...وبدأ المتمردون سفاكو الدماء يغوون الرهبان بالكلمات المعسولة، آملين ان يخدعوا رعية المسيح والقناصة في الدير كما خدعوا سكان المدن الآخرين. وكان الرهبان، حاملو صورة الحكمة والتواضع والطامحون الى ما في السموات العليا والمعرضون

[1]) يبيڤانوڤ وڤيدوسوڤ، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص151.

عما في الأرض، قد رفضوا كلمات المتمردين المعسولة واغراءهم، بل قرروا ان يدافعوا بقوة عن العقيدة المسيحية الارثوذكسية والقيصر المؤمن...وان يقفوا بثبات وان يقاتلوا المتمردين حتى الموت دون ان يستسلموا لهم، فأخذوا يلومونهم ويفضحون احابيلهم المجنونة"[1].

❖ **الازمة الدينية الاوكرانية.**

في عام 1596 أُعلن عن اتحاد كنيسة روسيا الغربية في اوكرانيا مع روما في اتفاقية بريست ليتوفيسك، والواقع ان اغلب المندوبين كانوا ضد الاتحاد كونهم موالين للطائفة الارثوذكسية التقليدية، لكن معظم القساوسة اعترفوا بسلطة البابا، واكدت الحكومة البولندية على شرعية الكنيسة الموحدة وحاولت تقويض الكنيسة الارثوذكسية الاغريقية في بيلاروسيا واوكرانيا معاً، وسلمت المباني الكنسية الى الاكليروس الموحد، كما تمت مصادرة الكتب والكراسات المعدة من قبل العلماء الارثوذكس المضادة للاتحاد، ويجب ان نضيف انه من خلال هذه الفترة تم تحويل معظم امراء روسيا الغربية الى الكاثوليكية الرومانية وهم الذين كانوا حتى منتصف القرن السادس عشر المدافعين الاشداء عن الكنيسة الارثوذكسية الاغريقية، ولم يبق سوى القوزاق الزابوروزي الذين تبنوا دور الحماة للعقيدة الارثوذكسية في اوكرانيا. لكن الازمة الدينية انتهت قبل نهاية الربع الاول من القرن السابع عشر، ففي عام 1620 التأم مؤتمر الكنيسة الارثوذكسية في كييف، وقام فيه القوزاق بدور فعال، وقد رسّم ثيوفانس بطريرك القدس عدداً من الاساقفة الجدد،

---

[1]) المصدر نفسه،ص151-152.

وهكذا استعيدت الهيئة الكهنوتية الارثوذكسية في روسيا الغربية، واعترفت الحكومة البولندية على مضض بوجود الكنيسة الارثوذكسية الاغريقية في اوكرانيا وان لم تمنحها سوى حقوقاً محدودة[1].

❖ **مشاكل الاصلاح الديني.**

بحلول عام 1550 كانت الكنيسة الارثوذكسية قد تعززت في روسيا سواءً من ناحية العقيدة أم من ناحية التنظيم، وبدت كأنها اساس البلاد، لكن ذلك لم يكن صحيحاً، لأن الاضطراب استمر في المسائل الروحية، وبزيادة الاحتكاك بالأجانب وُلد اهتمام روسي بالفكر الغربي حيث أظهر قلة من الروس في ذلك الوقت ميلاً نحو الكاثوليكية الرومانية، غير ان هناك من تأثر بالبروتستانتية، وقد حضرت الحكومة الروسية على الروس التحول عن الكنيسة الارثوذكسية الاغريقية؛ اما حالات التحول الصريح نحو البروتستانتية فكانت قليلاً، ولكن هناك اشارات في المراجع تفيد ان العديد من الموظفين الحكوميين، فضلاً عن التجار كانوا يتعاطفون سراً مع العقيدة البروتستانتية. وقد ظلت الاغلبية الساحقة من الناس متمسكة بكنيستها التقليدية، ومع ذلك فعلى الرغم من انهم كانوا يعدون الارثوذكسية الاغريقية هي الاساس للحياة الروحية الروسية، فإن العديد من قادة الكنيسة سلموا بضرورة ادخال اصلاحات معينة في الكنيسة، وتعريف جديد للعلاقات بين الكنيسة والدولة؛ وحول النقطة الاخيرة كان هناك شعور لدى بعض الاساقفة ان محنة روسيا كانت- الى حد ما- بسبب سلبية الكنيسة واللامبالاة خلال الازمات السياسية، وكان هناك

---

[1]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص134.

جـدل علـى ان للكنيسـة واجـب تقـديم ارشـاد قـوي للأمـة، وكـان اضـطلاع البطريـرك فـيلارت(1619-1633)(وهـو والـد ميخائيـل رومـانوف الـذي انتخـب قيصراً لروسيا عام 1613) بلقب العاهل العظيم قُصد به خطوة لتحقيق مثل هذا الهدف، غير ان البطريركيين التاليين تخليا عن هذا الدور؛ اما بخصوص الاصلاحات فقد كان هناك احساس ان عملية التصحيح ونشر كتب الشعائر الكنسية والصلوات التي بدأت على يد ماكسيم الاغريقي يجب ان تستمر، وكان الاب ديونيسوس صاحب دير الثالوث المقدس المعجب بكتابات ماكسيم قد عُهد إليه بالمهمة لكن برنامجه أُعيق بسبب قلة ثقافة مساعديه؛ اذ كان هناك قلة من رجال الدين الموسكوفيين في ذلك الوقت ممن لهم دراية بالإغريقية واللاتينية، واصبح واضحاً لـ ديونيسوس ان استشارة العلماء الاوكرانيين والاغريق ضرورية، ولكن الكثير من المحافظين الموسكوفيين عارضوا التسليم بأفضلية الاوكرانيين والاغريق، وفي الحقيقة، فإن موقف ديونيسوس كان يعني التسليم بفشل فكرة روما الثالثة اي ان موسكو ولدت ناقصة، وقد تطلبت وقتاً لهزيمة معارضة المحافظين، وحتى منتصف القرن كان الاصلاح يسير بطيئاً، ثم بعد ذلك أخذ الاصلاح درجة سريعة من الثورية في عهد البطريرك الجديد نيكون[1].

❖ **أزمة نيكون.**

كان نيكون قسيساً ذو شخصية نشطة وطموحة، وذو ميول استبدادية، يملأه شعور بالأجلال لمنصبه، والأهمية التاريخية لمهمته، ولد عام 1605 من

[1]) المصدر نفسه،ص136-137.

اسرة فلاحية من مقاطعة نيزني نوفگورود، وقد بدأ سيرته الكنسية قسيساً قروياً، ولكن بعد وفاة اطفاله حث زوجته على حياة الرهبنة فيما دخل هو الدير راهباً، وفي عام 1648 رُسم متروپوليتان لـ نوفگورود، وبعد اربع سنوات، عندما اصبح كرسي البطريركية شاغراً، وعُرض على نيكون، وافق على ذلك شريطة ان يتعهد القيصر والقساوسة: "على طاعته في كل شيء بصفته راعياً لهم وأباً"، وطبقاً للمبدأ البيزنطي- كما عبر عنه البطريرك فوثيوس في القرن التاسع الميلادي- اعتقد نيكون ان البطريرك والقيصر يحكمان معاً المجتمع الارثوذكسي، وان البطريرك: "صورة حية للمسيح"، وهو أكثر أهمية من القيصر، ومثل البطريرك فيلارت مُنح لقب العاهل العظيم. وقد نجح نيكون في فترة قصيرة جداً من جمع ثروة هائلة، بل كان الشخص الأكثر ثراءً في روسيا بعد القيصر مباشرة. وبما انه محباً للإغريقية، ونصيراً للإصلاح، فإن نيكون لم يكن يطيق اي تأخير في تصحيح النصوص، والكتب الكنسية، وتغيير شعائر الكنيسة الروسية حيثما وجد اختلاف عن الاغريقية والاوكرانية، وكان نيكون يُكثر من استشارة البطاركة الشرقيين، كما احضر عدداً من العلماء الاغريق والاوكرانيين الى موسكو لمساعدته، وقد وافق مجلس القساوسة الروس على خطوات نيكون واجراءاته على الرغم من حقيقة ان بعض الاعضاء شككوا في حكمتها، وقد عارضه احد القساوسة صراحة فتم نفيه على الفور. وخلال المدة بين (1653-1656) تم تبديل كتب الصلوات والطقوس الروسية في نواح عديدة. وفيما كان جوهر اصلاح نيكون دينياً كان هناك دافعاً سياسياً وراءه أيضاً، وقد حدث الاصلاح في الوقت نفسه مع الازمة الاوكرانية لعام1648،

وساد الاعتقاد في موسكو ان توافق الطقوس الروسية مع الاوكرانية سيجعل من السهل بصورة عامة قبول حماية القيصر لدى رجال الدين الكييفيين خاصة، وسهولة تحويل ولائهم من بطريرك القسطنطينية الى ذلك الموجود في موسكو. وبشكل عام ان معظم هذه التغيرات التي احدثها نيكون اختصت بالشعائر الدينية، إذ ان اعظم تغيير ملحوظ كان في الرموز الدينية اليومية، فقد كان مجمع الفصول المائة قد أقر منذ عهد ايفان الرهيب(1547-1584) عدة قرارات منها:

1.رسم إشارة الصليب بأصبعين وليس ثلاثة.

2.قرر ان تُرسم الإشارة وفق حركة الشمس وليس عكسها.

3.قرر كذلك ترديد الهللوليا مرتين وليس ثلاث.

لكن نيكون الغى هذه القرارات، وامر باتخاذ اسلوب جديد في اتخاذ علامة الصليب، فقد امر المؤمنين بضم ثلاث اصابع لترمز الى الثالوث المقدس(الاب، والابن، والروح القدس)[1] بدلاً من اصبعين وفقاً للعادة القديمة في روسيا(رمز

---

[1]) تؤكد المسيحية على مفهوم الثالوث: "ان هناك ثلاث شهود[في السماء الاب، والكلمة، والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحدا]، والذين يشهدون في الارض هم ثلاثة: الروح، والماء، والدم، وهؤلاء الثلاثة هم في الواحد". انظر: يوحنا الاولى،5: 7. وينص قانون الايمان المسيحي للكنيسة الارثوذكسية الى مسألة الثالوث بالصيغة التالية: "نؤمن بإله واحد، أب ضابط الكل، خالق السماء والارض، كل ما يرى وما لا يرى؛ وبرب واحد يسوع المسيح، أبن الله الوحيد، المولود من الاب قبل كل الدهور، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، ذات الجوهر من الأب، الذي به كان كل شيء، الذي من اجلنا نحن البشر، ومن اجل خلاصنا، نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء، وصار انسانا، وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطي، تألم، ومات، وقبر، وقام في اليوم الثالث كما في الكتب، وصعد الى السماء، وجلس عن يمين الاب، وايضا يأتي بمجد عظيم ليدين الاحياء والاموات، الذي لا فناء لملكه؛ وبالروح القدس الرب المحيي، المنبثق من الاب والابن، الذي مع الاب والابن يسجد له ويمجد، الناطق بالأنبياء؛ وبكنيسة واحدة جامعة، مقدسة، رسولية؛ ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا؛ ونترجى قيامة الموتى، والحياة في الدهر الاتي". انظر:

الطبيعة الثنائية للمسيح اي: اللاهوت (الطبيعة الالهية) والناسوت (الطبيعة البشرية) للمسيح[1]، كما بدأ بأبدال الايقونات القديمة في الكنائس بأيقونات جديدة؛ ولم تكن التغيرات في نصوص كتب الصلوات متعلقة بالشعائر فحسب بل بصيغة العقيدة أيضاً، ومن خلال اخطاء النساخ القدامى اضيفت كلمة في قانون الايمان المسيحي الذي كان يُقرأ في الكنائس قبل نيكون لوصف الروح المقدسة وهي: "الحياة" لتصبح: "الحقيقة والحياة"، وقد تبدو هذه الامور صغيرة وعديمة الاهمية غير انها بالنسبة للأرثوذكسي المؤمن بالطقوس الكنسية القديمة تعد رمزاً واداة للشعور الديني، وقد ارتبط هذا الشعور بكل تفاصيل الطقوس الكنسية، وكان لكل كلمة في كتاب الصلاة معناها التقليدي، وبجانب هذه التحويرات التي صنعها نيكون بأسلوب مفاجئ وحاسم، لم يكن مدهشاً ان العديد من المؤمنين برهنوا على استعدادهم للدفاع عن حقهم في العبادة بأسلوبهم الخاص بعيداً عن اوامر كل من

علي زيعور، اوغسطينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطة،(بيروت: دار اقرأ،1983)،ص36؛ سهيل زكار، الاناجيل، الاناجيل: النصوص الكاملة،(دمشق: دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع،2008)،ص12.

[1]) ان المسيح حسب الكنيسة له طبيعتين إلهية وانسانية متحدتين في شخص واحد، شخص ابن الله المتجسد، وهذا الاتحاد قائم بدون انقسام، أو انفصال، أو تحول، أو اختلاط؛ وان كلا من هاتين الطبيعتين تحتفظ بصفاتها الخاصة، بمعنى: ان يسوع المسيح اله تام، وحقيقي؛ وفي الوقت ذاته انسان تام وحقيقي مركب من نفس ناطقة، وجسد مساو لجسد البشر، وشبيه بالبشر ما عدا الخطيئة، وبالتالي فإن جسد المسيح لم يهبط من الاعلى، وليس مركبا من عناصر سماوية، لقد كان جسدا بشريا اخذه من امه مريم العذراء عن طريق ولادة حقيقية، لأنه لو كان الها فقط وكانت انسانيته مجرد وهم وخيال فكيف يكون دخول اللاهوت الى صميم البشرية ليقدسها؟ ولو كان المسيح انسانا فقط فكيف يكون جسرا به تُنقل الى الانسانية الحياة الالهية نفسها؟ ولو كان اللاهوت والناسوت في المسيح منفصلين فكيف يتم بين الله والانسان ذلك الاتحاد الذي به تتجدد الانسانية وتتأله؟، وبالتالي ان هذا الاعتقاد في شخص المسيح شرط اساسي ليدرك البشر الخلاص الذي منحه الرب بهم. انظر: زيعور،اوغسطينوس،ص22، 31.

الكنيسة والسلطات، زيادة على ذلك، فإن بعض خصوم نيكون نبهوا- وهم محقين- الى ان عمل محرريه ومصححيه في بعض الاحيان كان على عجل وسطحياً، وفي بعض الاحيان لم تكن المخطوطات الاغريقية القديمة مؤكدة وموثوقاً منها، وهي التي خدمت كأساس للتصحيح بسبب ان كتب العبادة الاغريقية في ايطاليا لم تكن نفسها تخلو من الاخطاء. وفي بادئ الامر، بدا ان الروس كانوا مذهولين بهذه التجديدات والابتداعات؛ ورفض بعض رجال الكنيسة الالتزام بتعليمات نيكون، فأطلق عليهم اسم: اتباع الطقوس القديمة أو الانقساميون، واطلق على حركتهم اسم الحركة المضادة للنيكونية، ورفع قلة من رجال الكنيسة اصواتهم ضدها، ومع ذلك وفي وقت قصير كسبت الحركة المضادة للنيكونية أو الانقساميون زخماً واتساعاً، وقد ادت التدابير القاسية الى سكب الزيت على النار، واستثير القساوسة، والرهبان، والسيدات الارستقراطيات، والتجار، والفلاحين، واثبت العديد عن استعدادهم ليصبحوا شهداءً من اجل هذه القضية. وقد تعرض الكثير من اعضاء الحركة المناوئة الى عقوبات مختلفة، وأخذ نيكون يلاحقهم ويضطهدهم بسبب عصيانهم اوامره. بيد ان التغييرات بحد ذاتها لم تكن تستحق تلك الملاحقات، وذلك التنكيل، لأن نيكون ذاته صرح قائلاً فيما يخص كتب الصلوات القديمة: "هذه جيدة، وتلك جيدة، ولا فرق، فأخدم بالتي تشاء منها". وكان قد صرح بذلك التصريح في حديث خاص مع ايفان نيرونوف؛ بيد انه في الواقع لاحق اتباع الطقوس القديمة بالسيف والنار، ومن اعلن توبته اعيد الى الخدمة، وسمح له بأن يقيم الخدمة الدينية حسب الشعائر القديمة؛ وهذا يعني ان المسألة

الاساسية في ذلك الصراع كله، هي إظهار السلطة، والإعلان عن ان تحدي تعليمات الشخصيات الروحية السامية، هو من المحرمات. في الوقت ذاته كان مدى الملاحقات كبيراً جداً، وقد مارس نيكون وانصاره ابشع وسائل الاضطهاد ضد اعدائه من رجال الدين، فقد نفوا انصار الطقوس القديمة الى اديرة معينة، وقُطعوا ألسنة بعضهم، وجلدوهم بالسياط، فقط لأن هؤلاء ارادوا ان يرسموا إشارة الصليب بأصبعين لا بثلاثة؛ وكان الذين وقفوا في وجه التعليمات الجديدة كثيرين، ولم يقتصر الأمر على رجال الدين فقط، انما عارض تلك المستجدات أمراء أيضاً، ومن أشهر هؤلاء الكاهن الاول الأمير افاكوم وهو رجل نشيط، وصاحب قوة روحية كبيرة، وشخصية عنيدة، وجريئة، وكان يرى ان الحياة خارج الكنيسة الشرعية ليس لها معنى، لذا تم عزله من سلك الكهنوت مع انصار الطقوس القديمة الآخرين، وفي عام 1657 أُلقي القبض عليه، وتم نفيه الى سيبيريا، وسُجن في بوستوزيرسك، وكان عليه ان يقضي ما تبقى له من العمر هناك في حفرة رطبة ينهشه فيها البرد والجوع؛ كما اقتلعوا ألسنة كثيرين ممن حُكم عليهم بالنفي، وقد تساءل من جراء ذلك الامير افاكوم يوماً: "بالنار، بل بالسوط والمشانق يريدون أن يرسخوا الأيمان بالدين، فأي الرسل كرّز بهذا؟ انا لا اعرف، فمسيحي لم يأمر رسلنا بأن يعلموا هكذا". وهكذا بدا ان نيكون كان منتصراً، لكن علاقاته اصبحت متوترة بالقيصر الكسي ميخالوفيتش(1645-1676م)، وبالرغم من احترام القيصر للبطريرك، إلا ان القيصر قد ازداد شعوره بالملل والضيق منه؛ اما البويار فقد عارضوا تدخل نيكون في شؤون الدولة؛ فيما عد نيكون الموقف الجديد

المستقل للقيصر نقصاً للشروط الاصلية التي تعهد بها وقبلها القيصر والبويار لحظة انتخاب نيكون بطريركاً، وبناءً على ذلك قام نيكون في 20 تموز 1658 بتسليم شارة البطريركية وغادر الى الدير الذي بناه لنفسه على بعد 40 ميلاً الى الغرب من موسكو المعروف بالقدس الجديدة، وعلى الرغم من توقفه عن تأدية مهام البطريركية فإنه لم يتخل عن منصبه بشكل فعلي، وتبع ذلك ازمة متطاولة في الادارة، واستلم القيصر السيطرة الفعلية مؤقتاً على الإدارة الكنسية بمعاونة اعلى القساوسة مقاماً ومركزاً. لكن التصدع بالعلاقة بين القيصر ونيكون لم يؤثر في موقف القيصر المبدئي تجاه اصلاح الكنيسة، وعلى الرغم من خروج نيكون فإن الكنيسة ظلت نيكونية، ومن جهة اخرى، لما كان الإمبراطور الكسي يميل الى الاعتدال اكثر من نيكون فقد الغى بعض اجراءات نيكون العقابية تجاه قادة الطقوس القديمة، وفي عام 1664 سُمح لـ افاكوم بالعودة الى موسكو، وشعوراً بالمرارة لنفيه، وابتهاجاً بسقوط البطريرك رفض افاكوم ان تُعطى اي امتيازات للكنيسة الرسمية، وإلا لن تتم اي تسوية أو توفيق بين المجموعتين الكنستين، وفي غضون ذلك انعقد المجلس الكنسي الاعلى في موسكو عام 1666 شارك فيه بطاركة الكنائس الشرقية، اثنتان من هذه الكنائس حضر البطريرك شخصياً وهما الاسكندرية وانطاكية، اما الكنيستان الاخريان فقد حضر مندوبان عنهما وهما القسطنطينية والقدس، وكان امام المجلس قضيتان رئيستان في جدول الاعمال: النظر في تخلي نيكون عن البطريركية، واصدار قرار حول اصلاح الكنيسة، وتم التصويت بالأجماع على انزال نيكون الى راهب، وأُمر بالانصراف الى دير بعيد شمال روسيا، وهكذا

اصبحت البطريركية شاغرة وتم ترسيم بطريرك جديد، ولم يتم تحرير نيكون الا في عام 1681 حيث سُمح له بالعودة الى دير القدس الجديدة لكنه مات في الطريق، ومع ان المجلس قد حكم على نيكون لكنه دعم اصلاحاته الكنسية، فضلاً عن ذلك، تم حرمان الانقساميين، وبهذا العمل وضع نهاية للانشقاق داخل الكنيسة الروسية[1].

❖ **عهد الاضطهاد الديني.**

بناءً على قرارات المجلس الاعلى شرعت كل من الكنيسة والسلطة المدنية في روسيا في سياسة قمعية ضد انصار الطقوس القديمة، وحُكم على قادتهم بالموت، وأُحرق افاكوم على خازوق عام 1681، وعندما رفض رهبان دير سولوفكي في احد جزر البحر المتوسط قبول الطقوس الجديدة تم تسيير كتائب عسكرية ضدهم، ولم تستطع القوات الحكومية من انهاء مقاومة الرهبان الا بعد ثمان سنوات من الحصار 1668-1676؛ وساد الاعتقاد لدى الكثيرين من اتباع الطقوس القديمة ان نهاية العالم قد حانت، وان المسيح الدجال على وشك الظهور، واصيب بعضهم بحالات هستيرية بسبب السخط والغضب من الاضطهاد والمضايقة، وفضلوا الموت على الاستسلام، وبحلول عام 1675 انتشرت موجة احراق انصار الطقوس القديمة انفسهم، إذ قيّد المئات منهم انفسهم مع قادتهم الروحيين في حظائر خشبية واشعلوا النار في

---

[1]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص485-486؛ يبيفانوف وفيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوفييتي،ص196؛ فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص137-139؛

Sergei Hackel, " Nikon", in: Encyclopedia of Religion, Editor: Lindsay Jones,(New York,2005),Vol: 10,PP.6621-6622.

المباني، وقد قُدر عدد الضحايا بأكثر من 20.000 شخص رموا بأنفسهم الى النار طوعاً، وبحلول عام 1700 خمدت موجة الانتحار الهستيري، وبعد ذلك لم تسجل سوى حالات قليلة؛ إلا انها استمرت على امتداد القرن الثامن عشر، ولم تتوقف نهائياً إلا في عهد القيصرة كاترين الثانية[1].

---

[1]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص485-486؛ يبيفانوف وفيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوفييتي،ص196؛ فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص139-140.

7

انهيار سلطة الكنيسة

من بطرس الكبير حتى الحكم البلشفي

اخذت الكنيسة الروسية، التي كانت تلعب دوراً رئيساً في الحياة الروسية قبل عصر بطرس الكبير تفقد اهميتها تدريجياً، ولم تكن الدوائر العليا في المجتمع والواقعة تحت التأثير الاوروبي بحاجة كبيرة الى الكنيسة او تضع لها قيمة، ومن دون شك فقدت الكنيسة كذلك مكانتها بوصفها مصدراً رئيساً للحياة الثقافية، وفي القرن الثامن عشر كانت الطبقات الرسمية، والارستقراطية في المجتمع الروسي قد تأثرت بروح التنوير الفرنسي، وكانت تكن احتراماً للمفكر الفرنسي ڤولتير(1694-1778)، ولم يكن هناك احتراماً حقيقياً للكنيسة. وفيما يتعلق بقطاع كبير من الطبقات الدنيا، فقد فقدت الكنيسة أيضاً معناها الاصيل، وقد تبع انشقاق المتعلقين بالطقوس القديمة في القرن السابع عشر الى ان نصف السكان في بعض مقاطعات شمال روسيا قد انصرفت عن الكنيسة، وهكذا، فقدت الكنيسة الارثوذكسية في القرن الثامن عشر دعم قسم كبير من طبقة النبلاء، وجزءً لا بأس به من طبقتي التجار والفلاحين؛ وفي القرن الثامن عشر أوقفت الحكومة تقريباً تعظيم الكنيسة كونها سلطة اخلاقية سواءً فيما يخص نشاطاتها، أو بوصفها قوة في

المجتمع، وعدت عُنصراً اساسياً في التربية الاخلاقية لدى الطبقات الدنيا ليس إلا[1]، وهي خطوة بدأت منذ عهد بطرس الكبير(1682-1752).

من جانب آخر شهدت علاقة السلطة القيصرية بالكنيسة تغيرات في عهد بطرس الكبير اذ لم يكنّ بطرس ايمانه روسياً تقليدياً، فقد كان متأثراً بشدة بالحركة اللوثرية، فاعتقد ان الكنيسة الروسية يجب ان يعاد تنظيمها على النموذج الاوروپي، وكان المبدأ الاوروپي الرئيس هو ان دين الحاكم هو دين الدولة. وتحت تأثير اللوثرية، والرغبة في منع امكانية ظهور اي نيكون جديد فقد وصل بطرس الى نتيجة مؤداها ان الكنيسة المستقلة ضارة، وان من الواجب اخضاعها الى سلطة مدنية، وعند وفاة البطريرك ادريان عام 1700م رفض بطرس السماح بانتخاب بطريرك جديد، وقد ظل الكرسي البطريركي شاغراً ثم لم يلبث ان أُلغي. وفي صدد إعادة تنظيم الافرع العليا للإدارة الكنسية خلال النصف الثاني من حكمه انشأ بطرس مجموعة اكليركية لإدارة الكنيسة الروسية شبيهاً بإدارة الكنيسة البروتستانتية، فأحيلت ادارة الكنيسة الى لجنة الروحية أو هيئة الدينية وهي هيئة التي اعيد تسميتها باسم المجمع الكنسي المقدس ويُعرف باسم الـ سينودوس، وهكذا اصبحت الهيئة العليا لإدارة الكنيسة مؤسسة بيروقراطية مكونة من ممثلي رجال الدين وهم من كبار الاحبار تخضع للإمبراطور؛ وقد مُنحت الوظائف المهمة في الهيئة الكنسية الجديدة الى انصار اصلاحات بطرس مثل رئيس الاساقفة ثيوفان بروكوفيتش

---

[1]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص181؛ جلال يحيى، التاريخ الاوربي الحديث والمعاصر،(الاسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، بلا. ت)،ص113.

الـذي صـاغ القـانون الروحي الـذي حـدد نشـاط الـ سـيندوس المقـدس؛ وكـان المجمع المقـدس يعاقـب جميـع الكفـرة، حسـب وصـف الكنيسـة، بقسـوة كبيرة ويبث الديانـة المسيحية بالقوة بين الشـعوب غير الروسـية ويقـوم بالرقابـة على المطبوعـات. وكان يُشـرف على نشـاط المجمع المقـدس نفسـه الوكيـل الأعلى للـ سيندوس المقـدس، وهـو موظـف مـدني يعينـه القيصـر لهـذه الوظيفـة؛ ثـم قـام بطـرس بتحديـد عـدد اعضـاء الاكليـروس، وكمـا مـرر العديـد مـن القـوانين لإخضـاع النظـام الرهبـاني، وضـيّق مـن املاك الكنيسـة، إذ أمـر بـإدارة امـلاك الكنـائس والأديـرة كلهـا، وانتقلـت ادارتهـا في عهـده الى الدولـة، وكـان القيصـر يتصـرف بتسـلـط بعقـارات الكنـائس والاديـرة ووارداتهـا ويسـتخدمها لسـد احتياجـات الدولـة، واثـارت كل هـذه الاجـراءات تـذمر رؤسـاء الكنيسـة الـذين قاوموهـا مقاومـة عنيفـة؛ فقـد احتج الميتروبوليتان ستيڤان ياڤورسـكي وكـذلك انصـاره على تـدخل القيصـر في شـؤون الكنيسـة؛ لـذا أمـر بطـرس بتحويـل جـزء من الاديرة الى ملاجئ للجنـود المسـنين والمتقاعـدين، وقـد فعـل القيصـر ذلـك لأن رجـال الـدين الارثـوذكس ولاسـيما الرهبـان منهم قـاوموا كل الاصلاحـات الجديـدة التي ادخلهـا؛ ولكي يخضـع رجـال الـدين ذوي الـرداءات السـود(الرهبان) للسـلطة القيصـرية بصـورة أقـوى منـع القيصـر ترهـب النـاس الـذين يقـل اعمـارهم عـن 30 عـامـاً، وكـذلك الفلاحـين الاقنـان؛ امـا الرهبـان الهـاربون فقـد أمـر: "بتقييـدهم بالسلاسـل وتشـغيلهم في الاديـرة حتى المـوت"؛ كمـا أوجـب بطـرس الاول على

جميع القساوسة بأن يقرئوا المواعظ والنصائح في الكنائس لتبصير الفلاحين وبأن يعلموا الاطفال الصلاة لكي يتربوا على مخافة الله واطاعة القيصر[1].

في عام 1721 تجاهل بطرس الكبير لقب القيصر واتخذ لقب: "امبراطور كل روسيا" بدلاً عنه كجزء من العلمنة نظامه وتحديثه وتأكيد سيادة الدولة على الكنيسة[2].

في حدود عام 1740 ظهرت طائفة مسيحية قرب خاركوف عُرفت باسم دخوبور(Dokhobors)ويعني اسمها محاربو الروح، وقد اطلقه عليهم الكنيسة الارثوذكسية عام 1785 الذين زعموا انهم يحاربون الروح القدس، ولا يُعرف اسم هذه الطائفة قبل هذا الاسم، وقد نشأت هذه الطائفة بين مجموعة من الفلاحين الروس في جنوب روسيا، وقامت على اسس من التعاليم الشفوية اصلها غامض، ويبدو ان تعاليم هذه الطائفة مشتقة جزئياً على الاقل من عدد من الهراطقة العائدين للقرن السابع عشر ومنهم دانيلو فيليپوف(Danilo Filipov)، الذي انشق بشكل جذري عن الكنيسة الارثوذكسية، وقد طُرد هذا من الكنيسة لأنه عد الله يسكن في كل انسان وليس في الكنيسة؛ وقد رفضت الطائفة الكتاب المقدس واستبدلته بمزامير منقولة شفاهياً والتي اطلقوا عليها اسم كتاب الاحياء، يتم انشاده في التجمعات الدينية. والقرارات في هذه الطائفة يتم اتخاذها بشكل جماعي في اجتماعات عامة، ولا تستخدم طائفة محاربي الروح اي رموز دينية باستثناء الخبز والملح والماء، والتي تمثل العناصر

---

[1]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص486؛ يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص218؛ فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص160.

[2]) Encyclopedia Britannica, Tsar.

التي تحافظ على الحياة، وتتضح العلاقة بين الثالوث كما يعتقد محاربو الروح بالشكل التالي: الذاكرة/ الاب، العقل/الابن، الارادة/الروح القدس، ويؤمنون بالتقمص وخلود الروح. وتُبجل طائفة محاربو الروح قادتها المختارين، الذين يعدون ملهمين بشكل خاص من الله، لكن بشكل عام يؤمنون بأن الناس متساوون لأن الجميع لديهم الله في داخلهم، وشعارهم هو: "الكدح والحياة السليمة". وفي اواخر القرن الثامن عشر تعرض انصار هذه الطائفة الى الاضطهاد من قبل السلطة والكنيسة على حد سواء[1].

يمثل عهد القيصرة كاترين الثانية(1762-1796م) ذروة سيطرة السلطة القيصرية على السلطة الكنسية والتي وضعت رجال الدين تحت سيطرة الدولة تماماً، وفي حديثها إليهم اخبرتهم القيصر قائلة: "ان مهمتكم هي إدارة الكنائس، وإقامة الأسرار المقدسة، والكرازة بكلمة الإله، والدفاع عن الدين، وإقامة الصلوات، والالتزام بالعفة، فأنتم خلفاء الرسل الذين أمرهم الله بحث الناس على احتقار ثروات الدنيا، وهم انفسهم كانوا فقراء جداً، فمملكتكم لم تكن من هذا العالم، أتفهمونني؟ لقد سمعت هذه الحقيقة من افواهكم، فكيف تتجاسرون، من غير ان تنتهكوا سمو مكانتكم، امتلاك ثروات لا حصر لها، وأملاك لا حدود لها تجعلكم على مستوى الملوك؟ انتم متنورون، ومكرسون، ولا تستطيعون الا تروا ان هذه الثروات كلها قد نُهبت من الدولة، واذا ما كنتم تحترمون القانون، وكنتم من رعاياي المخلصين، فإنه ينبغي

---

[1]) جون فيرغسون، الموسوعة الصوفية والديانات السرية، ترجمة: محمد الجورا،(دمشق: دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع،2014)،ص416-417؛

The Canadian Encyclopedia, Doukhobors.

عليكم الا تتأخروا دقيقة واحدة عن اعادة كل ما استحوذتم عليه بطرق غير شرعية، الى الدولة"[1]. ونتيجة لذلك فقد صودرت اراضي الكنيسة من قبل القيصرة كاترين الثانية عام 1764، وكان كبير الاساقفة روستوف(ارسيني ميتزوفيتش) الذي احتج ضد هذا الاجراء قد جُرد من منصبه، وسُجن في إحدى القلاع حتى مات، وفي الوقت نفسه أغلق عدد كبير من الاديرة[2].

غدا القيصر نتيجة سياسة كاترين الثانية هو الذي يدير شؤون الكنيسة الارثوذكسية الروسية عملياً، اي ان الكنيسة كانت كنيسة حكومية داخل الأراضي الروسية، ولذلك عُد الارتداد عنها جريمة جنائية، وكان يتبع الكنيسة شبكة من المدارس المحلية والمعاهد الاسقفية، كما كان اللاهوت الارثوذكسي يُدرس في المعاهد التعليمية العليا، وكانت هناك اعداد كبيرة من القيادات الروحية في الجيش والاسطول؛ كما ادارت الكنيسة نشاطاً تبشيرياً مكثفاً لتحويل مسلمي الامبراطورية الروسية، والبوذيين، واليهود، الى المسيحية الارثوذكسية[3].

خلال القرن الثامن عشر فقدت حركة انصار الطقوس القديمة وحدتها، وتمزقت الى فرق عديدة ومستقلة، وان انهيار الكنيسة القديمة اجبر انصار الطقوس القديمة على السير في طرق اكثر ابتداعاً، بعد ان كانوا قد احتجوا بوصفهم مدافعين عن هذه الطقوس ضد اجراءات نيكون؛ وهكذا اصبح من الضروري البحث عن وسائل جديدة لاختيار القساوسة؛ ففي الكنيسة

[1]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص487.

[2]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص182.

[3]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص487.

الارثوذكسية الاغريقية كان الاسقف وحده الذي يُرسّم القساوسة الجدد، وان هذا القسيس لا يستطيع نقل وظيفته الى شخص اخر. ولكن لم يكن هناك اساقفة متعلقين بأنصار الطقوس القديمة؛ اما القساوسة الذين تم ترسيمهم قبل الانشقاق، فقد طال بهم العمر مع الايام، واصبحوا على وشك الموت، ولم يكن هناك من سبيل لضمان ترسيم آخرين جدد، وهكذا واجه انصار الطقوس القديمة امكانية البقاء من دون قساوسة، وهذه المسألة برزت موضوعاً اساسياً في الخلاف بين القسمين الرئيسين لأنصار الطقوس القديمة، فأحدهما قرر ان يبقى من دون قساوسة، وهذا في آخر الامر، جعل تنظيمه اشبه بما هو في الكنيسة البروتستانتية؛ اما القسم الثاني الآخر، فبحث عن اسقف من خارج روسيا، واخيراً في القرن التاسع عشر، نجح هذا القسم في الحصول على اسقف رُسّم وراء حدود الامبراطورية الروسية في بوكوڤينا التي شكلت فيما بعد جزءً من النمسا[1].

ان انقسام انصار الطقوس القديمة الى مجموعات صغيرة في نهاية الأمر كان من اسباب ضعف المعارضة الكنسية الروسية، والسبب الآخر هو النمو السريع للطوائف المختلفة، وكان اقدمها الخليستي اي المُتسّوطين، وهم جماعة دينية من طقوسها الغريبة ان ينهمك اتباعها في ضرب انفسهم، أو غيرهم بالسوط، ويعتقدون ان ذلك تقرباً الى الله، وقد اخذت شكلاً محدداً في نهاية القرن السابع عشر، وكان الخليستي(Khlysty) متصوفين يعتقدون بإمكانية التجسد المستمر، والمتكرر لله في الانسان، وقد رفضوا الكنيسة الرسمية،

---

[1]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص182-183.

ومؤسساتها، وانكروا ايضاً الزواج، رتبوا حفلات سرية حاولوا فيها استحضار الروح القدس عن طريق الرقص المنتشي، وهذه الحفلات انتهت في بعض الاحيان الى الانغماس المفرط في لهو معربد، وكان غريغوري راسبوتين الذي لعب دور تراجيدي في نهاية العهد الامبراطوري الروسي منضماً الى الخليستي في شبابه. وفي الربع الاخير من القرن الثامن عشر ظهرت وسط المسيحيين الروحيين في مقاطعة تامبوف فرقة المسيحيين الانجليين الذين لقبوا بالمولوكين(Molokane) اي شاربي الحليب خلال الصوم، وهو الامر المحرم وفق قواعد الكنيسة الارثوذكسية. وقبل حلول القرن التاسع عشر استطاع انصار الطقوس القديمة وغيرهم من الفرق المسيحية تحويل العديد من التجار والفلاحين لعقيدتهم، وفي عهد الكسندر الاول(1801-1825) نفذ الخليستي على وجه الخصوص الى الدوائر العليا في المجتمع، وتم تنظيم فروع الخليستي في عصر هذا القيصر على يد الجماعات الراقية في مجتمع سان بطرسبيرغ[1].

خلال القرن الثامن عشر أُخضع كل المنشقين عن الكنيسة الى القمع والاضطهاد المتواصل من جانب الحكومة؛ اذ حُكم على قادة محاربو الروح في جنوب روسيا بالموت حرقاً أواخر عام 1792، غير ان كاترين الثانية استبدلت حكم الموت بالنفي الى سيبيريا، وشرعت الحكومة في اتخاذ سياسة اكثر تسامحاً تجاه انصار الطقوس القديمة، لكن قمع افراد الطوائف الاخرى لم ينته إلا مطلع القرن التاسع عشر في عهد الكسندر الاول بناء على نصيحة عضو مجلس الشيوخ ايفان لوبرخين الذي اجرى تحقيقاً في واحدة من

[1]) المصدر نفسه، ص183.

الحكومات الجنوبية عام 1801. وفي ظل حكم القيصر الكسندر الأول انتهاء عهد الاضطهاد لطائفة محاربو الروح، وفي عام 1802 تم تجميع الطائفة في مستوطنات في شبه جزيرة القرم التي كانت آنذاك منطقة حدودية. وفي عهد نيقولا الاول(1825-1855) بدأ التراجع، وعادت الحكومة مرة اخرى الى سياسة قمع الانشقاق الديني، وقد قُدر مجموع انصار الطقوس القديمة وافراد الطوائف المسيحية الذين تعرضوا للقمع بحلول عام 1850 حوالي 9.000.000 شخص؛ كما شمل الاضطهاد الديني طائفة محاربو الروح[1].

خلال القرن التاسع عشر اخذت التعاليم البروتستانتية بالانتشار والتي كانت تنكر العقيدة المعقدة، وطقوس الكنيسة الارثوذكسية؛ كما برزت في جنوب روسيا حركة ستوندو المعمدانية[2]، وقد ظهرت في النصف الاول من القرن التاسع عشر، وانتشرت انتشاراً واسعاً في النصف الثاني، وفي سبعينيات القرن التاسع عشر وقع اتباعها تحت تأثير تعاليم المعمدانية القادمة من باسارابيا ومن وراء القوقاز، وفي نهاية القرن، انتشرت المعمدانية في اكثر من 30 مقاطعة روسية. وقد حاولت الحكومة وضع حد لهذه الحركة عن طريق اجراءات بوليسية، وفي عام 1894 عُدت الطائفة: "ضارة الى حد

---

[1]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص،ص184؛

The Canadian Encyclopedia, Doukhobors.

[2]) المعمدانية: جزء من المسيحية البروتستانتية الذين يشتركون في المعتقدات الرئيسية مع معظم البروتستانت ولكنهم يصرون على ان المؤمنين فقط يجب ان يعتمدوا، ويجب ان يتم ذلك عن طريق الغطس في الماء بدلاً من الرش أو صب الماء؛ ولا يشكل المعمدانيون كنيسة واحدة أو هيكل طائفي واحد، ويصر بعض المعمدانيين على عدم وجود سلطة بشرية. انظر:

Encyclopedia Britannica, Baptist.

بعيد"، وحُظر عليها حق التجمع، ومن الطبيعي ان تكون النتيجة ازدياد نمو الحركة[1].

ان الكنيسة على الرغم من انهيار سلطتها الاخلاقية في القرن التاسع عشر فإنها ظلت حية قادرة على تقديم توجيه ديني لأتباعها، وكان دليل على استمرار حيويتها حتى في معظم فترة موتها في القرن الثامن عشر، فقد برز رجل كبير داخلها مثل الاسقف تيخون زادونسكي الذي كان من اوائل الروس الذين رفعوا صوتهم ضد القنانة. وفي القرن التاسع عشر قدمت الكنيسة عدداً من الزعماء البارزين الذين مارسوا نفوذاً كبيراً على الافراد سواءً في الطبقات العليا ام الدنيا خلال نقائهم الاخلاقي، وهؤلاء الزعماء كانوا رجال دين من ذوي السلوك الصارم، ويأتي إليهم المؤمنون من اجل النصيحة، والاستشارة في مشاكلهم العملية والروحية، وكان الزعيم من هؤلاء يُسّخر نفسه لكل انسان مهما كان وضعه الاجتماعي، وقد لقى قادة دير اوبتتينا بوستين تقديراً واحتراماً خاصين. من جانب اخر لم تتغير السياسة القيصرية والكنسية تجاه المنشقين إلا بعد قيام ثورة 1905، عندم صدر بيان في 19 اب 1905 يسمح بالحرية الدينية[2]، وخلال هذا الوقت، كان في روسيا اكثر من 20.000.000 من المنشقين من بينهم انصار الطقوس القديمة والمعمدانيين وغيرهم. ويمكن ان

---

[1]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص184.

[2]) حول هذا البيان انظر:

Raymond Beazley, Neville Forbes and G.A. Birkett; Russia From The Varanglans to the Bolsheviks.(Oxford.1918),P.528;

ايناس سعدي عبدالله، من القيصرية الى الاشتراكية: تاريخ روسيا الحديث 1894-1917،(بغداد: اشوربانيبال للكتاب،2019)،ص102.

نلاحظ ان بيان عام 1905 بداية الحرية الدينية ليس للمنشقين فحسب بل للكنيسة الارثوذكسية نفسها؛ فخلال المدة التي سبقت الحرب العالمية الاولى حدث هيجان داخلي هائل في الكنيسة الارثوذكسية؛ وحوالي عام 1900 طرح بعض افراد الكنيسة الارثوذكسية مسألة دعوة المجلس الكنسي لضمان حرية الكنيسة من وصاية الدولة، وتنفيذ اصلاحات داخلية في مؤسساتها، واحدى الاصلاحات الداخلية الرئيسة التي بُحثت كان حق المجمع الديني في الحكم الذاتي لكنيستهم، ذلك الحق الذي كان له في الفترة التي سبقت بطرس الاكبر، ونتيجة لسياسة بطرس الكنسية اصبح المجمع الكنسي مقتصراً على قسم من الناس يعيشون في منطقة معينة مجاورة للكنيسة، ولا يملكون حق الحكم الذاتي في الشؤون الكنيسة؛ واقترح ايضا وجوب عودة منصب البطريرك الذي الغاه بطرس، غيران المجلس لم تتم دعوته إلا بعد ثورة 1917، وطوال تلك المدة استمرت الكنيسة تحت الوصاية الرسمية للحكومة من خلال الـ سيندوس المقدس[1].

[1]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص257-258.

8

الكنيسة المسيحية من بدء الحكم البلشفي حتى الحرب العالمية الثانية

عقب اندلاع ثورة شباط 1917 بوقت قصير دُعي المجلس الكنسي من اجل استعادة استقلالية الكنيسة عن الدولة، وبعد ايام قليلة أنتُخب رئيس الاساقفة تيخون بطريركاً، ثم شرع هذا في مباشرة واجباته تحت اكثر الظروف صعوبة بسبب الفوضى السياسية والرفض الحكومي، ومع ان الحكومة لم تحظر الانشطة الدينية إلا ان اضطهاد ممثلي الهيئات الدينية ومضايقتهم قد بدأ للتو في العديد من السوڤييتات المحلية، وفي السنوات بين 1917-1920 أُعدم المئات من الميتروپوليتانات، والقساوسة، والرهبان أو ماتوا جوعاً في السجون. ورغم اصداره لشجبٍ قاسٍ للإجراءات الشيوعية المتخذة في كانون الثاني 1918، فإن البطريرك تيخون لم يتعرض لمضايقة الحكومة السوڤييتية آنذاك[1].

كان اول اجراء اتخذه البلاشفة بعد وصولهم للسلطة هو مصادرة املاك الكنيسة بموجب مرسوم الارض الذي صدر في 26 تشرين الاول 1917 والذي تضمن: "توضع املاك الملاك العقاريين، وكذلك جميع اراضي العائلة القيصرية، والاديرة، والكنائس، مع كل ماشيتها، وعتادها، وابنيتها، ومرافقها تحت تصرف اللجان الزراعية في النواحي، وسوڤييتات نواب الفلاحين في الاقضية الى ان تبت الجمعية التأسيسية بالمسألة"[2].

---

[1]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص386.

[2]) انظر النص الكامل للمرسوم في:

وبمقتضى المرسوم الصادر في 23 كانون الثاني 1918 قطعت الحكومة السوفييتية رسمياً العلاقة بين الكنيسة والدولة، وتم تأميم كل ممتلكات الكنيسة بما فيها المباني نفسها، ولكي يستمر استعمال الكنائس للعبادة تم اجبار جموع المصلين على توقيع عقود مع السوفييتات المحلية تشترط دائماً الا يكون الرؤساء المحليون قد قرروا من قبل استعمال المباني في اغراض اخرى أو هدمها، ومن الضروري ايضاً الحصول على تصريح من السوفييتات لاستعمال ادوات الطقوس مثل كؤوس القرابين والاردية مع ان هذه الادوات أبقيت في حيازة الابرشيات الى حين، وبمقتضى القانون حُظر على الكنائس ايضا تملك اية املاك جديدة بديلاً عن تلك التي تمت مصادرتها. ومع ذلك، وعلى الرغم من كل هذه القيود وحتى اعتماد اول دستور لجمهورية روسيا السوفييتية الاشتراكية في 10 حزيران 1918، ظلت الكنيسة تملك على الاقل حرية محدودة من خلال المادة التي ضمنت كلا الامرين: حرية التدين، وحرية الدعاية المناهضة للدين، وهذه الفقرة أيضا تضمنها بقوة فيما بعد دستور الاتحاد السوفييتي لعام 1923 بالصياغة نفسها[1].

V. I. Lenin, Collected Works,(Moscow,2011),Vol:26,PP.258-260;

ڤلاديمير ايليج لينين، المختارات،(موسكو: دار التقدم،1977)،ج7،ص394-398؛ ڤلاديمير ايليج لينين، مسألة الأرض والنضال في سبيل الحرية،(موسكو: دار التقدم،1969)،ص61-65؛ ڤلاديمير ايليج لينين، التحالف بين العمال والفلاحين،(موسكو: دار التقدم،1970)،ص273-278؛منتس، كيف حدثت ثورة اكتوبر، (موسكو: دار التقدم،1987)،ص102-103؛ ريتشارد ابجيانزي واوسكار زاريت، لينين والثورة الروسية، ترجمة: محي الدين مزيد، مراجعة: امام عبد الفتاح امام،(القاهرة: المجلس الاعلى للثقافة،2003)،ص159؛ جورج صوريا،300 يوم من الثورة الروسية: مشاهدات ووثائق، ترجمة: اكرم ديري،(القاهرة: دار المصرية للكتب،1972)،366-370.

[1]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص386-387.

في ربيع عام 1922 اصدرت الحكومة السوفييتية مرسوماً يسمح بمصادرة أدوات الكنيسة الشعائرية مع توضيح ان العائدات ينبغي ان تُستخدم لأعمال اغاثة المجاعة، وقد صاحب عملية الاستيلاء على ثروات الكنيسة موجة جديدة من الاضطهاد تم فيها اعتقال العديد من القساوسة، واعدم عدد منهم، ومن بينهم اسقف پيتروگراد بنيامين، وفي غضون ذلك تم احتجاز البطريرك تيخون في احد اديرة موسكو. وخلال هذه المدة حاولت الحكومة السوفييتية التحريض على افساد داخلي في اروقة الكنيسة الارثوذكسية، وشقها عن طريق دعم مجموعة من القساوسة عُرفت بالكنيسة الحية انهمكت في حملة تطالب بمراجعة جذرية للمؤسسة الكنسية، وفي ربيع 1923 دعت هذه المجموعة ممثلي جزء من الهيئة الكنسية، وجموع من المؤمنين من غير رجال الدين الى اجتماع أُعلن فيه ان هؤلاء يمثلون المجلس الكنسي الشرعي للكنيسة الارثوذكسية، ومع ان هذا المجلس اتهم البطريرك تيخون بآرائه الداعية للثورة المضادة، وتجريده من منصبه، إلا ان الحكومة السوفييتية سرعان ما افرجت عنه بعدئذ؛ وحتى وفاته في 17 نيسان 1925 ظل تيخون بوصفه بطريركاً من قبل غالبية اعضاء الكنيسة، وعقب وفاته اصبح نائبه الميتروپوليتان بطرس على رأس الكنيسة، وعندما سجن هو الآخر من قبل الحكومة السوفييتية اصبح الميتروپوليتان سرجيوس الحامي للكرسي البطريركي، وفي صيف 1927 اعلن ولاءه للدولة السوفييتية[1].

[1]) المصدر نفسه، ص387.

في عام 1925 تأسست عصبة المناضلين الملحدين، وعلى الفور أطلقت حملة قومية واسعة ضد الكنيسة، ومع ان الألحاد قد نال شعبية كبيرة في ذلك الوقت خصوصاً بين جيل الشباب، ومع ان عضوية المنتمين الى الكنائس أظهرت انخفاضاً سريعاً خلال السنوات السابقة، إلا ان النغمة المبتذلة والتجديفية للدعاية الالحادية بدت منفرة اكثر من كونها محفزة على الايمان بها، وبحلول عام 1928 لم تستطع العصبة ان تجند سوى 123.000 عضو، وهذا الرقم يمثل اقل من 10% من اولئك الناشطين في الحزب الشيوعي، وفيما بعد تزايدت العضوية سريعاً، لكن الاعضاء اجمالاً ابدوا حماساً ضئيلاً لقضيتهم. وفي 8 نيسان 1929 اصدرت الحكومة السوفييتية مرسوماً جديداً حظر بموجبه على الجمعيات الدينية المشاركة في أي نشاط ثقافي او اجتماعي عدا الشعائر الدينية؛ وفي 22 ايار 1929 تم تعديل الدستور، وقد احتوت الصياغة الجديدة للتنظيم الحكومي تعديلاً مهماً، فبدلاً من ضمان الدستور لكل من الدعاية الدينية واللادينية نودي الآن: "بحرية العبادة الدينية"، و: "حرية الدعاية المناهضة للدين"، وهو ما يعد انقلاباً في الاسلوب حيث سُمح للملاحدة بإدارة حملة نضالية ضد الدين في حين مُنع المتدين من القيام بأنشطة تبشيرية، وقد تكررت صياغة مرسوم 1929 في الفقرة المتعلقة بالعبادة الدينية التي ادخلت في الدستور السوفييتي لعام 1936[1].

في 3 حزيران 1929 اصدر ستالين مرسوماً بدأت بموجبه حملة الاضطهاد الديني، وبمقتضى المرسوم، أُقفلت في مدى عام واحد ابواب

[1]) المصدر نفسه،ص387-388.

الكنائس والطوائف الدينية، وفي عام 1930 جرى القبض على الخلايا الدينية، وأبعد المتدينون من المناصب العامة والوظائف الحكومية، كما منع ستالين نشر الكتب الدينية، وتم اعداد نحو 150 فلماً من الأفلام المعادية للدين، وجرى عرضها في مختلف بلدان الاتحاد السوفييتي ولاسيما في المدارس. وفي عام 1931 نظم الجماعات والخلايا المعادية للدين، وطرد من الاتحاد السوفييتي كل الذين رفضوا طاعة أوامر تلك الجماعات والخلايا، ثم طبق الخطوة الرابعة في عام 1932 التي تضمنت تسليم كل الكنائس ومجمعات الطوائف الدينية الى مجلس السوفييتات المحلية وذلك لاستخدامها دوراً لعرض الأفلام المعادية للدين، أو اندية يمكن للشباب فيها ان يقضوا اوقات الفراغ بطريقة مفيدة. وكُرست الخطوة الخامسة في عام 1933 لتقوية المكاسب والانتصارات ضد الدين ومحو أية معتقدات أو افكار عن وجود شيء اسمه دين، وقرر استخدام علم الأخلاق بدلاً من علم الاديان في المدارس، ثم كلف اساتذة الأدب بوضع المؤلفات الضخمة والصغيرة عن الأخلاق الشيوعية وتدريسها في المدارس الابتدائية والثانوية، فضلاً عن الكتب الدراسية الأخلاقية لإرشاد الآباء. لكن المشروع الذي وضعه ستالين لهدم الدين أدى الى تزايد السخط وظهور التمرد لاسيما في اوكرانيا التي اشتهرت بتحمسها للدين، وقد ظهرت ثورات صغيرة فيها نادت بروح الدين ضد الشيوعية وافكارها الملحدة، ولكن رجال الشرطة السرية كانوا على اتم استعداد وسرعان ما

واجهت الثورة في مهدها من دون اي جهد ومقاومة، وبالطريقة ذاتها تخلص ستالين من التورة التي كادت ان تندلع للسبب نفسه في روسيا ايضاً[1].

بالرغم من كل القيود المفروضة على الدين، فإنه اظهر تماسكاً وقدرة ملفتة للنظر، وقد قدّر ايملين ايروسلاﭬسكي رئيس عصبة المناضلين الملحدين انه بالرغم من ان اكثر من نصف العمال في المدن عدوا انفسهم ملحدين فإن اكثر من نصف سكان القرى ظلوا يعبرون عن ايمانهم بالله، واذا كانت هذه العبارة صحيحة فإنها تعني انه بعد عشرين سنة من حكم السوﭬييت ظل حوالي 50% من سكان الاتحاد السوﭬييتي متمسكين بالدين، وربما تصل النسبة 30% على اسلم تقدير. وعلى اية حال فمن المعروف انه كان هناك اكثر من 30.000 من الجمعيات الدينية من شتى الطوائف في الاتحاد السوﭬييتي عام 1940، وليس هناك ادل من انه خلال السنوات الاولى للثورة هجر الشباب ولاسيما الذكور منهم الكنيسة بأعداد كبيرة، إلا انه خلال الثلاثينيات اصبح ممكناً إنشاء حركة الشباب المسيحي(الكريستمول) كحركة موازية للكومسمول أو حركة الشباب الشيوعية؛ وحيث لا توجد احصاءات رسمية عن الدين، لذا فمن المستحيل الحديث عن الأهمية العددية للحركة الجديدة؛ وفي السنوات الاخيرة كسبت الطوائف البروتستانتية وعلى الاخص المعمدانيون تحول اعداد كبيرة من الروس الى عقائدها[2].

---

[1]) قحطان حميد كاظم واحمد محمد جاسم عبد، "التطورات الداخلية في الاتحاد السوﭬييتي 1918-1939"، مجلة كلية التربية الاساسية، جامعة بابل، العدد:17، لسنة:2014،ص289-290.

[2]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص388.

في عام 1937 كان هناك انفجار مفاجئ وقصير نسبياً للدعاية المناهضة للدين في الاتحاد السوفييتي حيث تم اعتقال عدد من الاساقفة والقساوسة ومحاكمتهم، ولم يحاكم رجال الدين بسبب أنشطة دينية غير شرعية بل في الواقع لصلاتهم بجماعات تجسسية وتخريبية كانت تحاكم، أو تحت التحقيق آنذاك؛ واياً كانت الأهداف التي كانت ربما اقتضت هذا الاجراء، فإنه لم يحدث بعد ذلك انفجار آخر للحركة المناوئة لرجال الدين[1]. وقد تعرض المسيحيون المتدينون للاضطهاد على يد ستالين الذي امر بحرق الايقونات المسيحية في البيوت وهدم الكنائس ودور العبادة[2].

في السنوات التي تلت ذلك اصبح هناك تغير في موقف الحكومة السوفييتية تجاه الدين، وأول اشارات الرجوع الى موقف اكثر تسامحاً كان التسليم والقبول بفشل عصبة المناضلين الملحدين وتناقص الدعم الحكومي لها تدريجياً، وبعد مدة قصيرة أتت سلسلة من الأحداث أوضحت ان التقويم الحكومي لموقع الكنيسة في التاريخ قد تمت مراجعته، وفي جلسة مشتركة للمعهد التاريخي لأكاديمية العلوم واللجنة المركزية لعصبة المناضلين الملحدين في كانون الاول 1938 تم الاعتراف بالدور التقدمي الاساسي للكنيسة في العملية التاريخية، وكذلك الاعتراف بالصلة الوثيقة للمسيحية بتطور الفن والادب الروسيين خلال الفترة المبكرة من التاريخ الروسي، وهذه الاتجاهات نفسها ماثلة للعيان في انشطة رسمية، وشبه رسمية للحكومة، إذ كانت

---

[1]) المصدر نفسه،ص388-389.

[2]) سامح محمد اسماعيل، ايديولوجيا الاسلام السياسي والشيوعية،(بيروت: دار الساقي،2010)،ص169.

الكنيسة قد مجّدت الأمير الكسندر نيفسكي احد امراء العصور الوسطى، وقد مُجد أيضاً في الاتحاد السوفييتي بوصفه بطلاً قومياً لدفاعه الشجاع عن روسيا ضد الغزو الالماني في القرن الثالث عشر، وفي وقت قصير اكتشفت الحكومة السوفييتية ان دعم سياستها من قبل جماعات دينية مختلفة يمكن ان يكون مفيداً لأسباب عديدة[1].

في عام 1939 تبنى السوفييت سياسة دينية جديدة، إذ اظهرت الحكومة موقفاً معتدلاً بصورة متزايدة تجاه الكنيسة والدين عموماً، وفي الوقت نفسه ابدت الكنيسة رغبتها في التعاون مع السلطات، لاسيما مع بداية الحرب الالمانية حيث بذلت كل ما في وسعها لمساعدة الحكومة في تعبئة الناس لمواجهة الطوارئ، وبلغت العلاقات الجديدة التي تطورت بين الحكومة والكنيسة خلال الأشهر الاولى من الحرب ذروتها بإعادة تأسيس بطريركية موسكو، وهي خطوة اسهمت من دون شك في تعزيز كل من الكنيسة والامة، وفي 12 كانون الاول 1943 انتخب القائم بأعمال البطريركية الميتروبوليتان سيرجيوس بطريركياً للكنيسة[2].

---

[1]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص389.

[2]) المصدر نفسه،ص389.

9

بقاء بعض المعتقدات الوثنية القديمة في المجتمع الروسي

رغم دخول المسيحية الى روسيا فإن دلائل يمكن ان تقدم هنا عن بقاء بعض الطقوس الوثنية في المجتمع الروسي خلال العصور الوسطى والحديثة مما يشير الى بقاءها في الموروث الشعبي، وبما ان الدراسة هذه لن تتمكن من تغطية كافة هذه الجوانب الواسعة، فسيتم هناك ذكر نماذج قليلة فقط على امل تغطيتها في دراسات لاحقة، ويمكن ان نقسمها الى قسمين وهما:

اولاً: الطقوس الشامانية في سيبيريا[1].

ان الشامانية بالمعنى الدقيق هي اولاً وقبل كل شيء ظاهرة من الظواهر الدينية في سيبيريا وآسيا الوسطى، فهي ليست ديانة، بل هي شبكة من الطقوس والمعتقدات المختلفة التي تحيط بنشاطات الشامان المرتبط بأنظمة دينية شديدة الاختلاف[2].

---

[1]) استولى ايفان الرابع على سيبيريا عام 1581م. للمزيد من التفاصيل انظر: التكريتي، مقدمة في تاريخ روسيا الحديث،ص135-138.

[2]) Mircea Eliade, "Shamanism: An Overview", in: Encyclopedia of Religion, Editor: Lindsay Jones,(New York,2005),Vol:12,P.8269; Anna-Lewna Siikala, "Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism", in: Encyclopedia of Religion, Editor: Lindsay Jones,(New York,2005),Vol:12,P.8280.

❖ اصل كلمة الشامانية.

من الصعب حالياً الحديث عن اصل الشامانية، وكلمة شامان(Shaman) وصلت من المصادر الروسية من الكلمة التونغوزية[1]شامان(Šaman) أو خامان(Xaman)؛ ولكن يمكن ان نلاحظ انها لم تكن هي التسمية الوحيدة فقد كان الشامان في قبيلة كازاك كيركيز في سيبيريا يدعى الباكسا[2]. وقد قُدمت في القرن التاسع عشر نظرية تقول بأن كلمة الشامان مستمدة من الكلمة البالية[3]سامانا(Samana) وهي بالسنسكريتية سرامانا(Sramana)، وفي الصينية شا-مين(Sha-Men). وعلى الرغم من ان هذه النظرية قد دُحضت فإن الأسس التاريخية-الثقافية للشامانية قد جرى البحث عنها في البوذية أو غيرها من الموروثات الكبيرة ذات الكتب المقدسة في الشرق؛ وفي الحقيقة انه كان للديانة اللامائية في هضبة التبت تأثير مهم في نشوء الشامانية عند شعب الاڤنكي(Evenki) مثلاً وهو شعب من الشعوب التنغوزية، وعند المغول، والبوريات. لكن بشكل عام كان الانتشار الواسع لظاهرة الشامانية، واستيطان بعض افكارها الاساسية مثل: طيران الروح، والمثنوية الروحية، وشدة الحفاوة

---

[1]) اللغة التغوزية أو لغة الـ مانشو-تونغوز(Manchu-Tungus Languages)، وهي احدى اللغات الالطائية في سيبيريا، وتنقسم بين 10-17 لغة يتحدث بها الآن حوالي 70.000 شخص موزعين في منطقة شاسعة تمتد من شمال الصين عبر منغوليا الى الحدود الشمالية لروسيا. انظر:

Encyclopedia Britannica, Manchu-Tungus Languages.

[2]) ميرتشيا الياده، الاساطير والاحلام والاسرار، ترجمة: حسيب كاسوحة،(دمشق: منشورات وزارة الثقافة،2004)،ص،124؛ اسامة عدنان يحيى، السحر والطب في الحضارات القديمة: دراسة تاريخية مقارنة،(دمشق: صفحات للدراسات والنشر،2019)،ص309.

[3]) اللغة البالية(Balinese language): وهي لغة شعب جزيرة بالي(Bali) واندونيسيا(Indonesia). انظر:

Encyclopedia Britannica, Balinese.

بالصلة بالحيوان في منطقة القطب الشمالي وجنوبها، يدعم، على اي حال، الرأي القائل بأن جذور الشامانية تكمن في ثقافات الصيد في العهد الاول من العصر الحجري القديم؛ ويرى عالم الاديان مرتشيا الياده، ان افكار التجربة الوجدية وطيران الروح، يؤكد ان الشامانية قد نشأت من ميراث العهد الاول من العصر الحجري القديم واخصبتها البوذية واللامائية، فضلاً عن التأثيرات الاسيوية الشرقية والجنوبية الاقدم[1].ويرى الأستاذ كون ان الشامان هو أول اختصاصي بين البشر، وكانت حرفته أقدم الحرف الإنسانية؛ وليس هناك أدنى شك في ان الشامان قد وجد في عصر البلايستوسين المتأخر في العصر الحجري القديم(انتهى 11.700قبل الميلاد)[2]؛ فالشامانيين كما يرى الياده يمثلون التجربة الروحية الأكثر ثراء والأصح تعبيراً عن الإنسانية في مرحلتها البدائية[3].

❖ **اهمية الشامانية والشامان في المجتمعات السيبيرية.**

تشغل الشامانية اهمية خاصة في المجتمعات السيبيرية، ويمكن ان نلاحظ ان مكانة الشامان واهميته تختلف حسب نمط المجتمع الذي يعيش فيه وطبيعته الاقتصادية، إذ وفرت جماعات الصيد وصيد السمك الصغيرة في سيبيريا الشمالية مكاناً للشامانية يختلف تمام الاختلاف عن مكانها في الثقافات الزراعية في آسيا الوسطى المستقرة في بيئة واحدة. وتعتمد مكانة

---

[1]) Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism,P.8280-8281.

[2]) كارلتون كون، قصة الإنسان، ترجمة: محمد توفيق حسين وعبد المطلب الأمين، مراجعة: محمود الأمين،(بغداد: المكتبة الأهلية، بلا. ت)،ص145.

[3]) الياده، الأساطير والاحلام والاسرار،ص118.

الشامان في الجماعة ومهماته على السواء على الطبيعة الثقافية للمنطقة، واقتصادها، وطبيعة بنيتها الاجتماعية وممارستها الدينية، كما هو الحال في الشامانية في الجماعات الكبيرة، مثل تلك التي تقطن في سيبيريا الشمالية الشرقية، ويمكن ان نقدم امثلة حول ذلك، فمثلاً حافظ شعبا اليوكاجير(Yukagir) والاڤنكي(Evenki) على نظام العشيرة عندهما حتى ازمان متأخرة نسبياً، وشاماناتهما شديدي الارتباط بتنظيم العشيرة. وكان اليوكاجير، وهم شعب قبلي سيبيري، كان يعيش حتى نهاية القرن التاسع عشر على صيد الظباء، وتربية الايائل، وقد اخذ تربية الايائل واستوعبها من الاڤنكي. وكان السكان، الذين يتألفون من بقايا عشائر كانت في السابق اكبر عدداً، يعيشون في خيام الأُسر ذات القربى وقراها. وكان الشامان، الذي عليه ان يكون مرتبطاً بالعشيرة بروابط الدم، هو احد زعماء العشيرة ويعمل بوصفه راعياً عاماً لها: وكانت مهنته الرئيسة هي المحافظة على الصلة بين اعضاء العشيرة الاحياء والموتى، وان ينظم ممارسة الشامانية المرتبطة بطقوس الصيد حسب اوقاتها في التقويم لديهم. وفي اثناء هذه الطقوس كان من شأن الشامان ان يستعيد ارواح الحيوانات الموجودة في مستودع العالم الآخر من حارس النوع الحيواني لتُصاد مجدداً؛ كما كان يساعد افراد العشيرة بمعالجة الأمراض، والعقم، وبالنبوءة، وبمنع البلاء الذي تهدد به الأرواح. وكان نظام العشيرة المتقدم كثيراً موجوداً عند شعب الاڤنكي، الذين انتشروا في مساحة شاسعة، وانقسموا الى فئات مهنية مختلفة هي: الصيادون، وصيادو السمك، ومربو الايائل، والصيادون الذين يربون الخيل والماشية. وكانت وحدتهم الاجتماعية الرئيسة

هي العشيرة، التي لها منطقتها، وتنضوي العشائر بالتالي الى قبائل اكبر، وكان الشامان هو احد زعماء العشيرة. وقد حظي الشامان بأهمية خاصة، فمثلاً كان يُعتقد ان شعر الشامان لا يمكن ان يُقص لأنه محل الإقامة لأرواح اعضاء العشيرة في منطقة پودكامنيا تونگوسكا(Podkamennia Tonguska)؛ وكان شامانهم، بوصفه حامي العشيرة وزعيمها، عليه ان يقيم ماريليا(Marylya) وهو سياج مصنوع من الأرواح حول اراضي العشيرة؛ وهو فضلاً عن ذلك كان يمتلك المعرفة بنهر العشيرة الاسطوري المؤدي الى العالم الآخر. وكان شامان العشيرة يعقد الجلسات الروحية، ويمارس الشامانية من اجل طقوس الصيد. وفي نهاية القرن التاسع عشر كان يوجد كذلك شامانات محترفون من دأبهم ممارسة الطقوس الشامانية لمصلحة اعضاء عشيرة اخرى مقابل الأجر، ولكن لم يكن هؤلاء الشامانات الزائفون يحظون بمكانة شامان العشيرة المكرمة والمهمة. في حين كان الشامانات في الجماعات الصغيرة بين صيادي سيبيريا الشمالية والشمالية الغربية علاقة بمجتمعهم تضاهي علاقة شامان العشيرة بمجتمعه، فعلى سبيل المثال، كان النگاسانيين(Nagasani) وهم شعب سامويدي(Samoyedic Peoples) [(1)]، منتشرين في منطقة بلغت من الاتساع الى درجة انه لم يكن للعشيرة فيها اهمية بوصفها وحدة اقتصادية أو محلية؛ ولكن حافظت على اهميتها على الأغلب في المناسبات الدينية حسب،

---

[1]) الشعب السامويدي: وهم شعب يتحدث احدى لغات سيبيريا ومنطقة القطب الشمالي الروسية، وتشكل مع اللغة الفنلندية الاوغرية مجموعة اللغات الاورالية، وتنقسم اللغات الساموييدية الى فئتين الجنوبية والشمالية. انظر:

Encyclopedia Britannica, Samoyedic languages.

كما هو الأمر في الشعائر الدينية. وفي مناسبات مثل مهرجان الخيمة الطاهرة الذي يقيمه النگاسانيون، ويجري في شهر شباط عندما تبدأ الشمس في الشروق مجدداً، يظهر الشامان مرتبطاً فقط بجماعته الصغيرة، اي جماعة الخيمة أو القرية التي يساعد اعضاءها بوصفه شافياً؛ وجالباً النجاح في الصيد؛ وحارساً الولادات العسيرة[1].

لم تكن العلاقة بين شامان الشمال والمجتمع تشابه تلك العلاقة في سيبيريا الشمالية الشرقية، فمثلاً كان شعبا التشوكتشي(Chukchi) والكورياك(Koriak)، وهما شعبان قبليان صغيران موطنهما الاصلي في سيبيريا، لديهما فئتين من المهن ويتفاعل احدهما مع الآخر تفاعلاً وثيقاً وهما: مربو الايائل وصيادو ثديات البحر. ولم تُظهر الفئتان علامات على نظام عشيرة واضح، فوحدتهما الاجتماعية الاساسية تقوم على جماعات الصيد ومخيمات البدو الرحل التي تؤلف الاقارب والجيران. واحد ملامح الشامانية النموذجية هنا هو الشامانية العائلية؛ وفي هذا النمط من الشامانية، الذي لا يمكن ان يُعد شامانية بالمعنى الصحيح، يستطيع اي انسان يحضر المهرجان ان يقرع الطبل ويرقص بطريقة الشامان. وبما ان الطقوس المهنية(مثل الطقوس المرتبطة بالصيد) والطقوس المهمة الأخرى لم تكن تنجز بين الاسرة أو الاقرباء، لذا لم يكن الشامان مرتبطاً بأية زمرة واضحة التحديد في المجتمع، لكنه مع ذلك كان شافياً، وحالاً للأزمات الطارئة المتعددة[2].

---

[1]) Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism, P. 8281.

[2]) Ibid, 8281-8282.

اما بالنسبة للبدو والمزارعين الذين يعيشون في سيبيريا الجنوبية وآسيا الوسطى مثل قبائل الياقوت[1]، والبوريات، والتوفين، والالطائيين الجنوبيين، والخكاسي، واڤينكي ترانسبايكاليا الذين يربون الخيول، ونتيجة لارتفاع مقام المنطقة الى مستوى الوحدة الادارية فوق مستوى العشيرة قد وفر خلفية للشامانية اختلفت عن خلفية جماعات الصيد الشمالية. وتحت تأثير اللامائية والبوذية في الجنوب، تطورت السمات الطقسية للشامانية والمعتقدات المتعلقة بالعالم ما فوق الطبيعي بشكل اشد ثراءً وتعقيداً من الشامانية في الشمال؛ فبينما يكون الاتصال بالعشيرة مهماً في الشامانية الشمالية الشرقية، فإن العوامل الاقليمية هي التي تحدد في اكثر الاحيان مجال نشاطات الشامان في سيبيريا الجنوبية؛ وبما ان صيرورة المرء شاماناً ومروره تحت المأثور الشاماني يخضعان للسيطرة الصارمة من الشامانات الاكبر سناً، فمن الواضح ان للشامانية في الجنوب اشكالاً مؤسسية اكثر مما لها في الشمال. والشامان، فضلاً عن عمله شافياً وعرّافاً، يمكن ان يقوم كذلك في الجنوب بدور الكاهن مقدم القرابين؛ وان الممارسات التي هي من قبيل اضحية الحصان التي يقدمها التتار الالطائيون الى الإله في السماء تعتمد على قدرة الشامان على اصطحاب روح الحيوان المضحى به الى العالم الآخر[2].

---

[1]) تمثل عشيرة الياقوت من اهم القبائل السيبيرية التي اتضحت من خلالها الطقوس الشامانية ومن اجل الحصول على دراسة مفصلة حول معتقداتهم انظر:

Laurence Delaby, "Yakut Religion", in: Encyclopedia of Religion, Editor: Lindsay Jones,(New York,2005),Vol:14, PP.9864-9866.

[2]) Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism, 8282.

فضلاً عن الفوارق الرئيسة في مكانة الشامانية بأجمعها، يختلف الشامانات في طبيعتهم ومنزلتهم من مجموعة قومية الى أخرى، وقد لاحظ الخبير المجري في الشامانية ڤيلموس ديوشگي في مقابلته مع شامانات التوفا(Tofa) في اواخر خمسينيات القرن العشرين انهم يندرجون في طبقات مختلفة وفقاً للعشيرة، والرمز اللونية لألبستهم، وسلطتهم، وبراعتهم، وفي نهاية الأمر صفاتهم الشخصية المميزة أيضاً. وان طبقات الشامانات التي تستخدمها المجموعات القومية المختلفة واضحة في الأسماء التي تُعطى لأنماط الشامانات، وعلى سبيل المثال، كان الشامان الأشد احتراماً عند الانتسي(Entsi) وهم شعب سامودي، هو البودتود(Budtode)، الذي له القدرة على الاتصال بالأرواح التي تعيش في السماء؛ والأقل شدة في الاحترام هو شامان الدئانو(D'ano) الذي في مقدوره ان يحمي البشر من الأرواح الشريرة؛ ويليه في الأهمية شامان الساوود(Sawode) الذي يستطيع الاتصال بالموتى. وبالطريقة نفسها كانت ادنى طبقات الشامات عند الناناي(Nanai) هم السيورينكا(Siurinka)، اي الشامانات الذين يعالجون المرضى؛ وكان شامانات النيماتي(Nemati) القادرين على معالجة المرضى وعلى تأدية الممارسة الشامانية عند الاحتفال الأول بذكرى الميت على حد سواء؛ وكان من الشامانات الذين لهم المقام الاكبر شامانات الكاساتي(Kasati)، الذين كان لديهم قدرة في المعرفة الشامانية كلها واقتدار على اهم مهمة لشامان الناناي، وهي مهمة اصطحاب ارواح الموتى الى العالم الآخر. وكان الياقوت وغيرهم من الشعوب الالطائية يقسمون الشامانات الى سود وبيض ويشير ذلك الى طبيعة

الارواح التي يتصل بها الشامان؛ وكان الأبيض هو لون السماء، والأسود لون الأرض. ووفقاً للموروث الشاماني، فإن طبيعة الشامان ومرتبته تحددها الأرواح التي ادخلته في مراسيم الشامانية، ومن المحتمل ان الملامح المميزة كانت لدى الممارسة هي البراعة والقدرة على تحقيق غيبوبة الدخول في الشامانية وطبيعة الموروث الذي استوعبه. وقد يرتفع الشامان كذلك الى طبقة أعلى بازدياد معرفته، وكثيراً ما كان الشامان العظيم يحمل نعت: "العتيق"[1].

❖ **كيفية اختيار الشامان.**

في التقاليد الشامانية يُصبح الشخص شاماناً عبر ثلاث طرق:

1.الانتقال الوراثي للمهنة الشامانية، اذ كان الشامان يتم توريثه داخل الأسرة، ولاسيما في مناطق شامانية العشيرة وشامانية الجنوب الاحترافية، وقد لاحظ أ. ف. انيسيموف(A. F. Anisimov)، وهو خبير في الشامانية عند بودكامنيا تونگوسكا اڤنكي(Podkamnnia Tunguska Evenki) ان الشامانات يحاولون بتقصد ان يحافظوا على الشامانية داخل الأسرة؛ وفي الاقاليم الشمالية حيث كثيراً ما كان اختيار الشامان هو مسألة نداء عفوي من قبل الارواح، فإن تلك الأرواح التي يواجهها المبتدئ هي أرواح الطبيعة على الاغلب، ومبدأ الوراثة داخل الأسرة هو انعكاس للفكرة القائلة بأن الأرواح التي تهيئ المبتدئ ليصبح شاماناً هي الشامانات الاسلاف أو ارواح الطبيعة التي تتولى المهمة عند التماس ارواح الاسلاف.

---

[1]) Ibid, 8282.

2.الشعور العفوي بأن الشخص مدعو الى هذا العمل عن طريق النداء من قبل الأرواح أو الآلهة.

3.ثمة حالة يصلح فيها الافراد شامانات نتيجة لإرادتهم الحرة أو بإرادة العشيرة، لكن اولئك الشامانات ذاتيي الصنع يُعدون اقل قوة من الذين ورثوا المهنة أو الذين اطاعوا نداء الآلهة أو الارواح؛ فالشاب لدى التشوكتشي(Chukchi) مثلاً يمكن ان يختار ان يصير شاماناً على أمل الحصول على الثراء والمقام؛ وعند الاقنكي يمكن لأكبر العشيرة سناً اختيار طفل لتدريبه بوصفه شاماناً[1].

يمكن ان نلاحظ ان الاضاحي كانت تقدم في طقوس اختيار الشامان، وهذا يتضح في ممارسات شعب الكيت في سيبيريا الذي يقوم بالتضحية بحيوان السنجاب الطائر من اجل اختيار الشامان، فبعد التضحية بالحيوان لمدة سبعة أيام تظهر جثته ان كان المرشح شامانياً وإلا فلن تظهر[2].

لدى الكثير من القبائل السيبيرية، فإن الشاب الذي يُدعى الى ان يكون شاماناً يجذب الانتباه بسلوكه الغريب، أو مزاجه الشاذ، وهو أمر يُعرف بين المختصين بمصطلح: مرض الشامان، وفي كل انحاء سيبيريا وآسيا الوسطى كثيراً ما كان اختيار الشامان مسبوقاً بمرض الشامان، ويمكن ان تكون الأعراض الأولى هي فقدان التوازن العقلي، أو يصبح غائب الذهن، أو ظهور

---

[1]) Eliade, Shamanism: An Overview,P.8269; Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism,P.8282-8283.

[2]) ميشال بيران، الشامانية: فلسفة للحياة، ترجمة: ادريس كثير،(ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للسياحة والثقافة،2013)،ص48-49.

نوبات الهستيريا، أو ينشد الوحدة ويحب التجول على غير هدى في الغابات أو الأماكن المهجور، وينشد الاعتكاف، أو يرى رؤى نبوية أي رؤى غير عادية، أو سماع الأصوات غير المألوفة، أو يغني في نومه، أو ظهور آلام بدنية مبرحة. وفي العادة كان المرض يصيب الناس في سن المراهقة، ولكن المصابين وهم بالغون يمكن ان يصبحوا داخلين في الشامانية، فكثيراً ما كان من دأب الشامان الذي يُستدعى لمعالجة مصاب ما بهذه الاعراض ان يعلمه كيف يمارس الشامانية. وكان داء الشامان يُفسر بأنه نداء الأرواح ان يصبح شاماناً، وبما ان المهمة كانت بالغة الخطورة، يقول الشامانات انهم كانوا في اكثر الاحيان يقاومون النداء حتى النهاية[1]. ويمكن ان نقدم بعض الامثلة عن مسألة مرض الشامان، فعند شعب الياقوت ينتاب الشاب احياناً نوبات من الغضب العنيف فيفقد وعيه بسهوله، ويختفي في الغابة، ويلتحي بلحاء الشجر، ويرمي نفسه في الماء والنار، ويجرح نفسه بالسكاكين. ويعاني شامان المستقبل عند التونگوز، وهو يقترب من النضج، من ازمة هستيرية؛ ولكن نداءهم الداخلي يتجلى في سن مبكرة أحياناً، فيفر الصبي الى الجبال، ويظل فيها أسبوعاً أو اكثر يقتات على الحيوانات، التي يمزقها بأسنانه اشلاءً، ويعود الى القرية قذراً، مضرجاً بالدم، وثيابه ممزقة، وشعره اشعث، ولا يبدأ في الهذر في الكلمات المتفككة إلا بعد ان تمر عشرة ايام أو اكثر[2]. وحتى في حال الشامانية الوراثية، فإن اختيار شامان المستقبل يسبقه تغير السلوك، فأرواح اسلاف

---

[1]) Eliade, Shamanism: An Overview,P.8270; Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism,P.8282-8283.

[2]) Eliade, Shamanism: An Overview,P.8270.

الاسرة من الشامانات تختار شاباً من بين الاحفاد؛ فيصبح غائب الذهن ومغتماً، ويبتهج في الوحدة، وله رؤى نبوية، ويكابد نوبات تجعله فاقد الشعور. ويعتقد البوريات(Buriats) ان الأرواح تحمل في هذه الفترة روح الشاب بعيداً، وحين يستقبلها اسلافه الشامانات في قصر الآلهة، يعلمونها اسرار المهنة، وأشكال الآلهة، واسماءها، وعبادة الأرواح واسماءها؛ ولا تعود روح الشاب وتستأنف سيطرتها على جسدها إلا بعد هذا الدخول الأول في العضوية[1].

ويمكن للرجل ان يصبح شاماناً بتتبعه حادثة عرضية أو حدثاً غير مألوفاً الى حد كبير، فمثلاً عند شعب البوريات، والسويوت(Soyot)، بعد ان يصيبه البرق، أو ان يسقط من شجرة غابة، أو بعد اجتيازه الناجح لتجربة قاسية يمكن ان تتماثل مع محنة الدخول في عضوية الشامانات.

❖ **طقوس العبور.**

مهما كانت الطريقة التي يتم بها اختيار الشامان، فلا يُعترف بأنه كذلك حتى يتلقى نوعين من التعليم:

1.نوع وجدي(احلام، غيبوبات).

2,نوع تقليدي(تقنيات شامانية، اسماء الأرواح ووظائفها، اساطير العشيرة وانسابها، اللغة السرية)[2].

كان بلوغ التمكن من التقليد الشاماني وتقنية طقس الوجد أو الغيبوبة يستدعي من المبتدئ تدريباً خاصاً، وتعتمد طبيعة الابتداء وطوله على وضع

---

1) Ibid,P.8270.

2) Mircea Eliade, Shamanisms: Archaic Techniques of Ecstasy,(London,1964),P.13; Eliade, Shamanism: An Overview,P.8270.

الشامان في جماعته، واهمية الشامانية في المجتمع، ويختلف من منطقة الى أخرى طول مدة التلمذة، وكمية المأثور المستلهم وطبيعته، وتعليم الداخل في حقل الشامانية، وعدد طقوس الابتداء، والسيطرة على قدرات المبتدئ. وكان الملمحان المشتركان في كل المناطق هما:

1.التقاء الشامان مع الأرواح وفوزه بالأرواح المساعدة حين يكون في حالة الوجد.

2.اقرار المجتمع بأنه شامان جديد[1].

كان المبتدئ من اجل ان يُصبح شاماناً عليه ان يمر بعدة مراحل يمكن تلخيصها بما يلي:

في أول مدة الابتداء ينعزل الشامان المبتدئ وحيداً، ويتعلم كيف يستخدم الطبل في نشدانه التجارب الوجدية، وينغمس في الموروث الشاماني؛ وكانت احدى مهامه الرئيسة هي تأليف اغنياته الشامانية؛ وكانت اغنيات مناداة الأرواح التي تُغنى في الجلسات الروحية لشامانات التشوكتشي مثلاً، هي نتاج مدة الابتداء. وفي الرؤية الشامانية(اثناء الغيبوبة)، فإن المبتدئ، من المفترض، ان تعلمه الأرواح؛ ولكن هناك اخبار عن اوضاع يُرشد الشامانات الأكبر سناً فيه المبتدئ في فن الشامانية.

المرحلة التالية في مدة الابتداء هي مرحلة الرؤى وسماع الاصوات التي يجتاز فيها المبتدئ معرفته بالأرواح.

---

[1]) Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism,P.8282.

لا يصبح شامان المستقبل شاماناً إلا بعد المرور بتجربة قاسية اثناء غيبوبته، وتُعد تجربة الدخول في الوجد وما يرافقها من رؤى خاصة بتقطيع اوصال الجسد وما يليها من تجديد الأعضاء ابرز مدخلاً الى عضوية الشامانات؛ ففي اثناء هذه التجارب يشعر المبتدئ ان الأرواح تدمر بالفعل شخصيته القديمة، اذ من المفترض انها تقوم بتقطيعه، وبعد ذلك تعيد تجميعه شاماناً جديداً، قادراً على رؤية ما هو خفي على الناس العاديين، ويمكن ان نلاحظ في التقاليد الشامانية تكرار موضوع الموت والولادة الجديدة؛ فعلى سبيل المثال، عند الساموديين يؤدي امساك الأرواح بعظام الشامان المبتدئ، وتقطيع جسده، واعادة تجميعها لهيكله العظمي دوراً مهماً في الرؤى التي تصور ولادة الشامان من جديد. ويعلن الشامانات السيبيريون عادة بشكل تقليدي، من اجل اختيارهم شامانات، انهم يدخلون في حالة الوجد، ومن المفترض انهم اثناء ذلك يموتون ويستلقون فاقدي الحياة مدة تتراوح من 3-7 ايام في خيامهم أو اماكن انعزالهم؛ وفي غضون هذه المدة، تقطع الشياطين أو ارواح العالم الاسفل اجسادهم، وتُطهر عظامهم، ويُكشط لحمهم، ويُرمى بالكتل السائلة من الجسد بعيداً، وتُمزق عيونهم من اوقابها. ووفقاً لناقل معلومة من قبيلة الياقوت، فإن الارواح تحمل روح شامان المستقبل الى العالم الاسفل، وتُغلق عليه في احدى الدور مدة ثلاث سنوات، وهناك يجتاز تجربة دخول العضوية كي يُصبح شاماناً، فتبتر الأرواح رأسه، وتنحيه جانباً، لأن على الشامان المبتدئ ان يراقب تقطيع اوصاله بعينيه، وتقطع جسده إرباً، لتتقاسمه بعدئذ ارواح الامراض المتنوعة، ولن يفوز شامان المستقبل بسلطة

الشفاء إلا في ظل هذا الشرط؛ عندئذ ستكتسي العظام لحماً جديداً، وفي بعض الأحوال يُعطى كذلك دماً جديداً. ووفقاً لناقل معلومة أخرى من الياقوت، فإن الشياطين السود تُقطّع جسد شامان المستقبل، وتنثر القطع في الاتجاهات المختلفة بوصفها قرابين، ثم تطعن رأسه بالرمح، وتبتر حنكه. وقد أخبر احد الشامانات الساموديين اليوراك من سيبيريا احد الرحالة ويدعى تويفو لهيتسالو(Toivo Lehitsalo) ان الأرواح هاجمته وقطعته إرباً، وبترت كذلك يديه، واستلقى سبعة ايام بلياليها على الأرض فاقد الشعور، في حين كانت روحه في السماء. ويخبر احد الشامانات من الساموديين الاڤام العالم الانثروبولوجي الكسندر پوپوف(Alexander Popov) احداث دخوله تجربة الشامانات، فقد ظل شامان المستقبل وهو مصاب بمرض الجدري فاقد الشعور ثلاثة ايام، شديد الدنو من الموت الى حد انه كاد يُدفن في اليوم الثالث، ورأى نفسه وهو ينزل الى الجحيم، وبعد مغامرات عدة حُمل الى جزيرة، انتصبت في وسطها شجرة بتولا، وصلت الى السماء، وكانت شجرة رب الأرض، الذي اعطاه غُصناً منها ليصنع لنفسه طبلاً(احد الرموز الشامانية). وبعدئذ جاء الى جبل، وباجتيازه ثُغرته التقى رجلاً عارياً يمارس النفخ بمنفاخ ذي مقبضين في نار كانت عليها قدر، وامسك به الرجل بكُلابة، وبتر رأسه، وقطّع جسده، ووضع القطع في القدر، وسلق الجسد فيها ثلاث سنين، واخيراً اخرج العظام التي كانت تعوم في النهر، ووضعها معاً، وكساها لحماً. وكان شامان المستقبل في اثناء مغامراته في العالم الآخر قد التقى عدة شخصيات شبه إلهية، بأشكال بشرية أو حيوانية، وقد علمته كل شخصية منها اسرار فن

الشامانية، وبوسعه الشروع في العمل الشاماني. ويروي شامان من التونگوز(Tunguz)، انه في اثناء مرض الدخول في الشامانية، غرز اسلافه الشامانات فيه النبال حتى فقد الوعي، وخرّ على الأرض؛ ثم بتروا لحمه، واخرجوا عظامه، وعددوها امامه؛ لو جرى اغفال واحدة منها، لما اصبح شاماناً. ووفقاً للبوريات فإن المرشح يعذبه الشامانات من اسلافه، الذين يضربونه، ويقطعون جسده بالسكين، ويطهون لحمه. وقد اصبحت امرأة من قبيلة التيلوت شامانة، بعد ان رأت رؤيا فيها رجال مجهولون يقطعون جسدها ويسلقون قطعه في قِدر؛ ووفقاً لتقاليد الشامانات الالطائيين، فإن ارواح اسلافهم تفتح بطونهم، وتأكل لحمهم، وتشرب دمهم

بعد دخول الشامان في العضوية يظل عليه ان يُبرهن لجماعته عن قدراته، وهو يقوم بذلك عن طريق طقوس شامانية اختبارية متنوعة أو من خلال الطقوس العامة؛ وكان شامان الجماعة الصغيرة في سيبيريا الشمالية الغربية يكتسب هذه الخصائص تدريجياً في اثناء الطقوس السنوية؛ وكانت ملابسه واشياءه الطقسية يصنعها جيرانه واقرباؤه. وان الطقوس الاختبارية الكبيرة التي كانت تجري في منطقة شامانية العشيرة تحضرها العشيرة برمتها. وقد لاحظ المختصون في الشامانية ان الشعائر التي تحيط بابتداء الشامان قد تطورت بصورة اشد ثراءً في شامانية المناطق الجنوبية؛ وكان شامان البوريات مثلاً، يعد في خلال مهرجان الابتداء الكبير بالوفاء بالتزامات مهنته.

كان ابتداء دخول الشامان عند الشعوب القبلية في آسيا السيبيرية والوسطى اقل رسمية منه في اي مكان آخر، وكانت الأسرار الدينية التي تحيط

بـدعوة الأرواح وخبرة لقـائهم لا يعلـو عليها شـيء؛ حيـث كانـت هنـاك بضـعة مقتضيات ضرورية، وان الإعلان الطقسي عن الشامان الجديد لم يكن مهماً في ذاته، اذ كانت اعمال الشامان اللاحقة هي التي تُثبت هل كان مقتدراً ام لا[1].

❖ **المعتقد الشاماني.**

رأينا اعلاه ان جزء مهم من تعليم الشامان المبتدئ هو المعتقد الشاماني، ولنا هنا ان نتساءل: ما هو هذا المعتقد؟.

ان بعض الدلائل عن طبيعة موروث الاعتقاد الشاماني توفره لنا رؤى مدة التعلم، واغنيات الشامان التي تصور مثلاً، رحلة الشامان الى العالم الآخر، فضلاً عن الاساطير الشفاهية والتي يمكن ايضاحها بما يلي:.

1.الكون.

ان التصـورات الشـامانية الخاصـة بـالكون واضـحة في التقاليـد الشفاهية، رغم ذلك فإنها تتباين كثيراً في سيبيريا وآسيا الوسطى، فضلاً عن ظهور تأثيرات شديدة من الديانة اللامائية(Lamaism) والديانة البوذية بين شعوب سيبيريا الجنوبية، رغم ذلك يمكن الحصول على ملامح مشتركة واسعة الانتشار بين الشعوب السيبيرية حول الكون. ومن هذه الملامح مفاهيم عن الكون المتعدد الطبقات، المكون من العالم الاعلى، والعالم الأوسط الذي

---

[1]) Eliade, Shamanisms: Archaic Techniques of Ecstasy,P.42-44; Eliade, Shamanism: An Overview,P.8270-8271; Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism,P.8283;

ميرتشيا الياده، التنسيب والولادات الصوفية، ترجمة: حسيب كاسوحة،(دمشق: منشورات وزارة الثقافة،1999)،ص184-185.

يسكنه الإنسان، والعالم الاسفل، وان هذا الكون المتعدد ينقسم الى ثلاثة، أو سبعة، أو تسع طبقات؛ وتترابط هذه الطبقات بنهر العالم(عند شعب الكيت يمثل الماء المقدس) الذي يبدأ في السماء ويجري عبر الأرض الى العالم الأسفل، أو بثقب في النجم الشمالي في مركز العالم، فعلى سبيل المثال يعتقد التشوكتشي بأنه من الممكن المرور عبره من طبقة الى أخرى. وتعتقد الشعوب الشمالية بوجه خاص، فضلاً الى اعتقادهم بالكون المتعدد الطبقات، بمفهوم عالم علوي شبيه بالخيمة، والقبة الزرقاء الخاصة بها تمتد فوق عالم مستدير أو مربع(حسب اختلاف التقاليد)؛ وما يدعمها في المركز العمود الكوني؛ والظاهرتان الموازيتان للعمود الكوني في التقاليد المختلفة هما الجبل الكوني والشجرة الكونية، ونظيرة الشجرة الكونية في التقاليد الشامانية هو شجرة الشامان، التي يمكن للشامان بوساطتها ان يسافر من مستوى عالم الى مستوى عالم آخر. وتشير التقاليد المحلية الى تصورات متنوعة عن الكون والعالم، اذ يعتقد شعب الياقوت بأن الكون كان موجوداً منذ الأزل، وتروي اسطورة أخرى عن سقوط الأرض من السماء؛ اما قبائل القرغيز فتروي اساطيرهم عن عدم وجود ماء في البدء وان اول ثور اوجد الأنهار والجداول بحرث الأرض بقرنيه؛ وتعتقد قبيلة البوريات التي تسكن قرب بحيرة بايكال بأن الأرض خُلقت من المياه، وقد وضع الإله يرين-آي-توجون(Yryn-ai-tojon) ثلاثة اقراص من ثلاث سمكات عظيمات لتثبيت موضع الأرض، وتحدث الهزات الأرضية عند تحرك احدى هذه السمكات[1].

---

[1]) Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism,P.8283-8284;

2.العالم الاسفل.

كان على المبتدئ ان يدرس في مدة تعلمه بنية الكون وان يتعلم قبل كل شيء طبوغرافيا العالم الآخر: الممرات، والأنهار المؤدية الى ذلك العالم، وأماكن الارباب المتعددين، والأرواح الحارسة، وشياطين المرض، والموتى؛ وكان الطريق الى العالم الآخر يوصف عادة بأنه محفوف بالمصاعب والأخطار، وكان شامان الناناي مثلاً قادراً على وضع قائمة بالمعالم على امتداد الطريق الى مملكة الموتى والأخطار التي تنتظره على امتداد الطريق. وتشير التقاليد السيبيرية ان الإله المسؤول عن العالم الأسفل هو ايرليك ويمثل روح الشر في الاساطير السيبيرية، وعند قبائل اللاب في سيبيريا عُد سيد العالم الأسفل وحارساً مخيفاً لأرواح الموتى. وتروي اساطير التتار من القبائل الالطائية اسطورة ايرليك ونسله، اذ تقول ان الإله الأعلى اولغان(Ulgan) رأى قطعة طين تطفو في المحيط وعليها وجه انسان فأعطاه هذا الإله روحاً؛ وقد غدا هذا المخلوق ايرليك، واصبح صديقاً للإله، ولكن غروره ادى الى نفيه الى العالم الاسفل والاعماق، فأصبح سيد الموتى، واخذ شكلاً مرعباً، وتعتقد القبائل الالطائية ان ايرليك هو ابو البشرية، وهو الذي يسيطر على الموت بينما يسيطر اولغان على الحياة. كما تعتقد هذه القبائل ان ايرليك صنع الأماكن المقفرة والموحشة، اذ طلب منه الإله جلب قطعة من الطين من المياه،

كورتل، قاموس اساطير العالم،ص124.

فأخذ جزءً في فمه ليصنع عالمه، وبدأت القطعة تتسع، مما جعله يحس بالاختناق فأمره اولغان برميها فرماها ومنها خُلقت المستنقعات[1].

3.الآلهة.

آمن السيبيريون بالآلهة، فقد كان الإله بوگا(Buga)، هو الإله الخالق في اساطير سيبيريا، ولاسيما شعب التونگوز المقيم في الاجزاء الشرقية من سيبيريا، وتذهب الأسطورة ان بوگا الإله الخالق اخذ مواد الخلق وعناصره من الجهات الأربع للأرض: فأمده الشرق بالحديد، والجنوب بالنار، واعطاه الغرب بالماء، في حين ان الشمال زوده بالشراب، وقد خلق من التراب لحم وعظام اول كائنين من البشر(ذكر وانثى)، كما خلق القلب من الحديد، والدم من الماء، والدفء من النار[2].وهناك الإله يرين-آجي- توجون(Yryn-ajy-tojon) وهو الإله الخالق الأبيض، ويعتقد شعب الياقوت انه يعيش في نهر لينا في سيبيريا، وقيل أيضاً انه الكائن الأعلى ويسكن في شجرة عملاقة على قمة تل في مركز العالم؛ وهذه الشجرة الكونية تمتد بأغصانها الى طبقات السماء السابعة، وتمتد جذورها في الأعماق في تيه هو مسكن الأرواح الأرضية، وجذع الشجرة لا ينكسر واوراقها لا تذبل. وتروي اسطورة ان هذا الإله رأى ذات يوم كيساً من الهواء يطفو على سطح الماء فسأله: ما هذا؟، فأجاب الكيس: "انا الشيطان الذي يعيش على الأرض تحت الماء"، فقال الإله: "لو ان هناك ارضاً تحت الماء، فأحضر لي قطعة منها"، فغطس الشيطان تحت الماء، وعاد من الأرض، فباركها

---

[1]) Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism,P.8283-8284.

كورتل، قاموس اساطير العالم،ص105.

[2]) كورتل، قاموس اساطير العالم،ص109؛ امام، معجم ديانات واساطير العالم،ج1،ص227-228.

الإله وجلس عليها؛ فغضب الشيطان، وحاول اغراق الإله بجذب قطعة الأرض من تحته، لكن كلما جذب القطعة اتسعت اكثر حتى غطت الماء[1]. وهناك في التقاليد السيبيرية إله خالق آخر هو إس(Es) ويصور في هيئة رجل عجوز بلحية طويلة سوداء، ووفقاً للأساطير فقد شكل إس الموجودات البشرية الاولى من الطين، فمن قذفه بيده اليمنى كان رجلاً، ومن قذفه بيده اليسرى كان امرأة[2]. ومن الآلهة آجي سيت(Ajysyt)(القابلة)، وهي الإلهة-الأم لشعب الياقوت، وتسمى كذلك: "ام المهد"، واعتقدوا انها تكون حاضرة في كل ولادة لأنها الإلهة القابلة والحاضنة. ويعتقد الياقوت انها تأتي من السماء بروح الطفل، في وقت اعتقد بقية القبائل السيبيرية بأنها تسكن السماء على جبل بسبع طبقات، وتكتب اسم كل طفل في كتاب ذهبي. اما التتار من القبائل الالطائية فسموها: "ام بحيرة الحليب"، وفي اسطورتهم يتحدثون عن إله ابيض جاء قرب بحيرة الحليب تحت الشجرة الكونية التي تمثل العمود الكوني، وهو الإله الأبيض الخالق، وقد سمع الشجرة تُخرج صوتاً، وسرعان ما خرجت إلهة انثى من جذورها، وارضعته من حليبها، فأصبح قوياً، وبذلك دمجت تلك القبائل بين شجرة الحياة والإلهة الأم[3]. والشيء المهم انه في سيبيريا والشعوب الرعوية في اسيا الوسطى كان الصيادين البدائيين يقدمون

---

[1]) كورتل، قاموس اساطير العالم،ص124؛ امام، معجم ديانات واساطير العالم،ج3،ص476.

[2]) إمام، معجم ديانات واساطير العالم،ج1،ص355.

[3]) كورتل، قاموس اساطير العالم،ص102.

الى الكائنات العليا أو الالهة السماوية العظام ورؤوس الحيوانات، والتي كانت تعد تكريما مميزا لها[1].

4.الأرواح.

كانت قبائل سيبيريا تعتقد بأن العالم في البدء كان مليئاً بالأرواح والأشجار والجبال والأنهار والبحيرات والحيوانات، وبعبارة أدق: يحرس كل شيء حي روح. وكان الموت والذبول يعني رحيل الروح؛ وقد استخدم الشعب الالطائي كلمة قوت لتدل على روح الإنسان والطبيعة. وكانت هناك أرواح عظمى مثل اوكولان توجون وهو سيد المياه؛ لذا عاملوا الماء باحترام في شمال آسيا، وقدم المغول القرابين لعبور المياه، واعتقدوا ان بعض المياه تصب في خلجان ثلجية تتحكم فيها ارواح تأكل روح الإنسان[2]. فضلاً عن سيد المياه هناك ارواح اخرى مثل داسجاگا(Dasjaga) وهي الروح الذي يتحكم في مصير الفرد، ويرتبط هذا الروح ارتباطاً وثيقاً بإله السماء تينگري(Tengri) الذي يراقب مصير الإنسان بصفة عامة، ويولد الحكام من خلال هذه الروح، ومن خلال: "السماء الزرقاء الأزلية"، وليس الحكام فقط، بل الفلاحون أيضاً. وفي القوانين التي سنها المغول ترد عبارة: "بفضل داسجاگا السماء الازلية"، بدلاً من: "بنعمة من الله"، التي كثيراً ما نجدها في الوثائق الغربية. ومن ثم فإذا كان هناك شخص هو سيد نفسه أو الحاكم الخاص لحياته، فإن هذا الشخص يسمى

---

[1]) ميرتشيا الياده، تاريخ المعتقدات والافكار الدينية، ترجمة: عبد الهادي عباس،(دمشق: مطابع الشام،1987)،ج1،ص314.

[2]) كورتل، قاموس اساطير العالم،ص107.

داسجاكا[1]. وهناك أيضاً إم-مقوت(Em-mqut) وهو روح يبعث الحياة في ديانة القبائل السيبيرية[2]. وهناك أيضاً ايرليك(Erlik) وهو روح شريرة أو شيطان في اساطير سيبيريا، ويُعرف أيضاً باسم شولمان(Shulman)، وتروي اساطير مختلفة حول اصله، فأحدى تلك الاساطير تقول انه كان في إنسانا ساعد الإله الخالق اولگن(Ulgen) في خلق الأرض؛ وتروي اسطوري اخرى انه كان في الأصل طيناً على هيئة بشرية فنفخ فيه الإله اولگن نسمة حياة فطفا فوق المحيط، غير ان الاسطورتين تتفقان في ان ايرليك سوف يدمر في النهاية العالم. وفي الاساطير التي رواها تورگوت(Torgot) نجد ايرليك يسمى شولمان وهو يروي في احدى هذه الاساطير ان شولمان خلق ثلاث شموس كي يحرق الأرض الذي اعاد إله الخلق بورقان-باكش خلقها من جديد، ثم اتخذ هذا الإله صورة البطل اركي موجن ودمر اثنين من الشموس الزائدة. ويسمى ايرليك احياناً ايرليك خان اي الإنسان العظيم، ويقال ان ذلك يعني انه كان سيد الموتى، وانه يرسل اتباعه من الأرواح الشريرة للقبض على المذنبين[3].وكانت الأرواح التي تتصل بالشامان في فترة تعلمه في سيبيريا الشمالية الشرقية هي أرواح الطبيعة على الأغلب؛ ويصور شامان الكورياك(Koriak) كيف ظهرت امامه في الغابات ارواح الذئب والغراب والدب ونورس البحر والسقساق في شكل بشري احياناً، وفي شكل حيواني أحياناً اخرى، طالبة إليه ان يدخل في خدمتها. وكان التشوكتشي، على سبيل المثال، ان: "كل شيء يعيش"، اي انه

---

[1]) إمام، معجم ديانات واساطير العالم،ج1،ص316.

[2]) المصدر نفسه،ج1،ص340.

[3]) المصدر نفسه،ج1،ص352.

حتى الأشياء غير الحية لها نوع من الروح، وهكذا تشمل عصبة الشامان من الأرواح على أشياء متنوعة: كالأحجار، وصحون البيت!!!. ومما له أهمية انه ليس هناك ثمة اختلاف بين الأرواح المرشدة في مدة الابتداء والارواح المساعدة بالمعنى الضيق للكلمة، فالأرواح التي تظهر امام المبتدئ تُصبح أرواحه المساعدة عندما يكون شاماناً. وفي شامانية الجماعة الصغيرة في سيبيريا الشمالية الغربية نجد كذلك ان الأرواح التي تؤثر في ابتداء الشامان هي ارواح الطبيعة على الأغلب، وتبرهن رؤى الابتداء عند نگاناساني(Naganasani) ان المبتدئ يصادف عدداً من ارواح الطبيعة، كروح الماء مثلاً، التي تمنح المبتدئ مرشدين لهم اشكال حيوانية في رحلته الى العالم الآخر؛ وهناك في ذلك العالم تصنع ارواح الحدادين شاماناً جديداً على سندانها، كما رأينا في التجربة القاسية التي يمر بها الشامان اثناء الغيبوبة الشامانية؛ اما الأرواح المرشدة فتغادر الشامان بعد ابتدائه الوجدي، في الوقت الذي يكون فيه قد عرف ارواحه المساعدة. وتؤدي ارواح الشامانات السابقين دوراً مهماً في ابتداء الشامان في شامانية العشيرة والشامانية الاحترافية في سيبيريا الجنوبية، فعلى سبيل المثال، يقول الاڤنكي(Evinki) والترانسبايكاليا(Trsnsbaikalia) ان احد الشامانات الموتى يظهر امام مرشح محتمل ويأمره ان يتبعه. وقد تظهر أرواح الشامانات السابقين بوصفهم مختارين للمرشح، أو بوصفهم معلمي المبتدئ فوق الطبيعيين، أو بوصفهم ارواح تنفذ عملية التقطيع في التجرية الشامانية، كما هو الأمر في تونگوسكا الدنيا(Lower Tunguska)، وتظل روح شامان سابق في العادة الروح المساعدة

للشـامان بمعنى الكلمـة. وعلى الـرغم مـن ان الأرواح المسـاعدة للشـامان عنـد الاڤنكي، مـثلاً، تظهـر في شـكل حيـوان او طـائر، إلا انـه تدعمـه عـادة ارواح شـامان في شـكل بشـري. والـروح الموروثـة الأخـرى هي نانـاي اجـامي(Nanai Ajami)، وهي الـروح الوصية على مرحلـة المبتـدئ، والتي تعلمـه احـوال العـالم الآخـر وتـزوده بـالأرواح الضـرورية الخاصـة بالشـامانية. والعلاقـة بـين الاجـامي والشـامان علاقـة حـب جنسي، فـالروح المقصـودة تكـون روح زوج أو زوجـة يـتم تناقلهـا مـن شـامان الى آخـر ضـمن الأسـرة؛ وهنـاك الشـامانات المخنثـون عنـد الشـعوب القبليـة التي موطنهـا الأصـلي هـو سـيبيريا وآسـيا الوسـطى يمكـن ان يكونـوا روحـاً عاشـقة. والـدور المهـم في حكايات الـتعلم الشـاماني عنـد شـامانات اليـاقوت تؤديـه الأم الحيوانيـة وأرواح الشـامانات السـابقين، ويمكـن لأرواح الاباسي(Abassi) الشـريرة ان تـؤدي اسـرار الـتعلم الشـاماني. اما الام الحيوانيـة، التي هي تجسيد روح الشـامان الكـوت(Kut)، اي شـبيهه الـذي لا يُـرى، كان يُعتقـد انها تظهر لدى ولادة الشـامان أو موته أو اثناء فترة تعلمه؛ وكان يُعتقد أيضاً ان الأم الحيوانية تظهر في شكل طائر ذي ريش حديدي، وتجلس على غصن شجرة الشـامان، وتجلـس على بيضـة تحتـوي روح المبتـدئ حتى تفقـس الـروح مـن البيضـة. وتختلـف طبيعـة الأرواح المساعدة وعـددها تمامـاً من مجموعـة قوميـة الى اخـرى، فعنـد اوب-اوگـريين(Ob-Ugrians) والمانسـي(Mansi) قـد تكـون لـدى الشـامان سـبعة ارواح مسـاعدة، اغلبهـا في شـكل حيـوان مثـل الـدب أو الايـل، أو الـذئب أو الحصـان أو الافعى أو السـمكة أو الطـائر. وكانـت الطيـور الشـائعة في المنـاطق الشـمالية العُقـاب والبـوم، فضـلاً عـن طيـور المـاء، ويقـال ان الشـامان

يتخذ شكل طائر منها حين يسافر مجتازاً الطرقات ما تحت المائية الى العالم الآخر. والمعتقدات المتصلة بالعلاقة بين الشامان وأرواحه معتقدات معقدة فقد يسافر الشامان في شكل حيوان؛ والشامان لدى الياقوت مثلا، يحارب الشامانات الاخرين في شكل امه الحيوانية، بوصفها ايلاً؛ ومن جهة اخرى فإن الأرواح المساعدة قد تصحبه بوصفها مساعدات خارجية، فعلى سبيل المثال، كان الشامان الاڤنكي من منطقة پودكامنيا تونگوسكا(Podkamennia Tunguska) يسيطر على زمرة كبيرة من الأرواح في رحلته الى العالم الاسفل[1].

❖ **العضوية الشامانية.**

بعد انتهاء الشامان من مدة التعلم تقام عادة مراسيم عامة للاحتفال بدخول عضوية الشامانات السيبيريين، وتعد مراسيم البوريات هي من اكثر المراسيم التي تستأثر بالاهتمام: اذ تقام شجرة بتولا قوية في الخيمة المستديرة، جذورها على الأرض وذروتها تبرز من فتحة الدخان، وتدعى شجرة البتولا هذه أودشي بورخان(Udeshi Burkhan) اي حارسة الباب، لأنها تفتح للشامان باب السماء، وستظل شجرة البتولا في خيمته على الدوام، مؤدية دور العلامة المميزة لمكان اقامة الشامان. وفي يوم تكريس المرشح يتسلق شجرة البتولا حتى القمة، وفي بعض التقاليد يحمل بيده سيفاً، ويُظهره من فتحة الدخان، ويصيح لاستدعاء عون الآلهة. وبعد ذلك يذهب الشامان الاستاذ، والتلميذ، والجمهور كله في موكب الى مكان بعيد عن القرية، حيث ينتصب، قبيل المراسيم، عدد كبير من اشجار البتولا على الأرض من جهة اليمين، ويتوقف

---

[1]) Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism,P.8283-8284.

الموكب عند شجرة بتولا معينة، ويُضحى بماعز، ويكون المرشح، المتعري حتى الخصر، قد دهن بالدم رأسه وعينيه واذنيه، في حين يقرع الشامانات الآخرون الطبول. وبعد ذلك يتسلق الشامان الأستاذ شجرة بتولا ويشق تسع اثلام من اعلى جذعها، عندئذ يتسلقها المرشح، ويليه الشامانات الآخرون، وعندما يتسلقون يقعون جميعاً- أو يتظاهرون بالوقوع- في حالة الغيبوبة. اما المرشح فعليه ان يتسلق تسع اشجار بتولا ترمز، شأن الاثلام التسعة التي يشقها الشامان الاستاذ، الى السموات التسع. وفي طقس الدخول في العضوية الشامانية لدى البوريات، يُعتقد ان المرشح يصعد الى السماء من اجل تكريسه؛ والتسلق الى السماء بعون من شجرة أو عمود هو كذلك طقس اساسي في اللقاءات الروحية عند الشامانيين الالطائيين، فيجري تشبيه شجرة البتولا أو العمود بشجرة أو سارية تقف عند مركز العالم وتصل الى المناطق الكونية الثلاث، الارض والسماء والجحيم. ويستطيع الشامان ان يصل الى مركز العالم بقرع طبله، لأن بدن طبله يُفترض انه مصنوع من غُصن مأخوذ من الشجرة الكونية. والشامان، بإصغائه الى صوت طبله يقع في الوجد ويطير الى الشجر الكونية، اي الى مركز العالم[1].

❖ **الادوات الشامانية.**

يميز الشامان عادة عدداً من الأدوات التي يستخدمها في طقوسه، والملابس التي يرتديها وهي:

---

[1]) Eliade, Shamanisms: Archaic Techniques of Ecstasy,P.115-122; Eliade, Shamanism: An Overview,P.8271-8272;

الياده، تاريخ المعتقدات والافكار الدينية،ج3،ص20؛ الياده، التنسيب والولادات الصوفية،ص190-191.

1.الطبل.

يـرتبط الطبـل بفكـرة رحلـة الشـامان، ومـن ذلـك مـثلاً، ان الاڤنكـي والتراسـبايكاليا يـدعون الطبـل قاربـاً، في حـين يدعونـه اليـاقوت والبوريـات والسـويوت حصـاناً، وفي هـذه الحالـة الاخيـرة يكـون عصـا الطبـل سـوطاً. والشـامان بواسـطة الطبـل يركـب أو يطير، وهـو بكلمـات اخـرى، يحقـق حالـة مختلفة من الـوعي، وان هيكل الطبل مصنوع من جلد حيوان تختاره الأرواح، وتدل مراسيم الإحياء في المناطق الالطائية على ان الحيوان المستخدم جلده في صناعة الطبل يمثل إحدى الأرواح الشـامانية، وخلال هـذه المراسيم فـإن الحيوان الذي صُنع الغشاء من جلده: "يعود الى الحياة مرة اخرى"، منبئاً عن حياتـه، وواعـداً بمسـاعدة الشـامان؛ كمـا ترمـز الأغـراض المنحوتـة على هيكل الطبل، أو المرسومة على الجلد الى الأرواح الشامانية وتعبر كذلك عن المفاهيم الكونية.

2.الملابس.

بـالرغم مـن ان ملابـس الشـامان هي، مـع الطبـل، معلـم مـن معـالم الشـامانية التي تستوقف النظر، فإن الخصائص المميزة لها وطرازها يختلفان من منطقة الى اخرى، فلا توجد عند التشوكتشي، مثلاً، ملابس شامان بالمعنى الضيق للكلمـة، وعنـد الاسـتعداد للجلسـة الروحيـة كان الشـامان يظهـر عاريـاً حتى الخصـر؛ وعلى نحـو مشـابه، فـإن المفـردة الوحيـدة التي كانـت تحـدد الشامان عند النينتسي(Nentsi) وهم شعب سامودي يقطن في الشمال الغربي من سيبيريا، كانت العمرة التي يلبسها. والملابس ذات العدد الأكبر من الزخارف

الرمزيـة موجـودة في سـيبيريا الوسـطى والجنوبيـة وفي آسـيا الوسـطى. ورداء الشـامان مصنوع مـن الـريش أو القمـاش، وعليـه اشـياء تُعلـق مـن المعـدن والعظام والقماش تصور ارواحاً في شكل حيواني أو بشري أو ظواهر مرتبطة بالعـالم ما فـوق الطبيعي؛ فعلى ظهر ثـوب شـامان اليـاقوت، مثلاً، قرصـان معـدنيان، همـا شـمس الشـامان وقمـره، اللـذان يـوفران الضـياء في الطريـق المظلمة الى العـالم الآخر. وعلى الـرغم من اختلاف الصور الرمزيـة، فـالفكرة الرئيسـة خلـف ثـوب الشـامان واضـحة، اذ يظهـر الـريش المـرتبط بـالعمرة، والزوائد المزينة بالفرو أو التي تشبه الأجنحة على الاكمام، والقرون أو انـف الـدب على العمرة ان يمثل اساساً نوعاً من الحيوان؛ والنمط الأكثر شيوعاً موجـود لـدى الالطـائيين يحـاكي في اكثر الاحيـان بومـة أو عُقابـاً، وفي سـيبيريا الشـمالية يحـاكي ايلاً؛ ويرتـدي السـامودي والكيـت كـذلك ثوبـاً يُـذّكر بالـدب. والشـامان، زيـادة على الصـور المرتبطـة بـالأرواح أو العـالم الآخـر، لـه كـذلك اضافات حديدية أو عظمية تشبه الهيكل العظمي البشري أو الحيواني، وترمز هذه الإضافات الى ما يعانيه الشامان من الموت والولادة الجديدة خلال الرؤية الوجدية في مدة التعلم. ويمثل الثوب الأسرار التي يتعلمها الشامان، وهو مكان إقامة الأرواح، وهكذا يُعتقد ان الثوب نفسه يمتلك قوة فوق الطبيعة. وفي شامانية العشيرة لا يمكن ان يُباع الثوب خارج العشيرة، لأن أرواح الشامان تنتسب الى العشيرة المرتبطة بها، ويمكن ان يُعلق ثوب الشامان البالي على

شجرة في الغابة، حتى تستطيع الأرواح ان تغادره تدريجياً وتدخل ثوباً جديداً[1].

❖ **مهام الشامان.**

ان اهم مهام الشامان هو القيام بالجلسة الروحية، وبشكل عام فإن البنية الاساسية للجلسة الروحية موحدة نسبياً، وبقطع النظر عن موضوع الطقس الشاماني، فإن الجلسة الروحية تُظهر اختلافات تبعاً للطريقة التي تتم بها ملاقاة الأرواح؛ وان الشعائر المتعددة، واظهار حضور الأرواح وابعادها، والحيل أو عروض البراعة التي تبرهن على القدرات المتفوقة عند الشامان تتباين من منطقة الى أخرى، وبرغم الاختلافات الثقافية، فإن الملامح الأساسية لتقنيات الوجد عند الشامان، والدور الذي يؤديه الحاضرون بوصفهم مساعدين في الجلسة الروحية هي عناصر الشامانية المشتركة في كل انحاء سيبيريا وآسيا الوسطى، وابرز ملامح الجلسة الشامانية هي:

1.تقضي الجلسة الشامانية ان يكون الشامان نفسه ومكان الطقس مُعدين بعناية شديدة، وكثيراً ما تسبق الجلسة الروحية مدة من الزمن يدخل فيها الشامان في الاعتكاف، ويصوم، ويتأمل، ويتذكر تفصيلات الشعائر التي عليه ان يؤديها خلال الجلسة الروحية؛ وقبل تنفيذ الطقس عليه ارتداء ثوب الشعيرة، وضبط صوت الطبل.

2.تنعقد الجلسة الروحية الفعلية عادة اثناء الظلام، مع وجود نار مشتعلة في الوسط، لأنه يُعتقد ان الأرواح تخشى النور.

---

[1]) Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism,P.8284-8285.

3.كانت اماكن الجلسات الروحية تختلف كثيراً، وتعتمد على مكانة الشامان، وأهمية مهمته؛ فالشامان وحامي العشيرة في منطقة پودكامينا تونگوسكا يعقد جلسته الروحية في سيڤينشيديك(Sevenčedek)، وهي خيمة تقام لهذا الغرض على وجه الخصوص، وكانت الجلسة تحضرها العشيرة كلها، ويتعاون اعضاؤها على الإعداد لها. ويبدو انه كلما ارتفعت مكانة الشامان وكبرت الجماعة التي يمثلها، اشتد تعقيد المتطلبات الاساسية الرمزية للثوب ومكان الجلسة الروحية، وازداد سير طقس الجلسة الشامانية.

4.قبل الجلسة الروحية، كان من دأب الشامان، والذين هم في حاجة الى عونه، والجمهور ان يجتمعوا، وعند بدأ الجلسة الروحية يبدأ الشامان باستدعاء ارواحه المساعدة بالغناء وقرع الطبل؛ وموضوعات اغاني الشامان تشمل دعوة الأرواح المساعدة، وتصوير رحلة الأرواح، ووصف رحلة الشامان الى العالم الاخر، ووصف طبوغرافية العالم ما فوق الطبيعي. وفي الاغاني التي تنادي الأرواح، والتي من خلالها قد يحاكي الشامان اصوات الارواح المساعدة ذات الاشكال الحيوانية من خلال التصفيرات والصيحات والدمدمات، يدعو الأرواح الى الجلسة الروحية، وقد يقدم وصفاً لرحلتها الى تلك الجلسة من مقامها في العالم الآخر خطوة تلو خطوة.

5.ان دعوة الأرواح المساعدة تتم عن طريق الغيبوبة الذهنية(حالة الوجد)، بما ان تقنيات الوجد هي ابرز ما يميز الشامانية، وسواء كان الشامان يتم اختياره من كائنات فوق مستوى البشر ام كان ينشد بنفسه جذب انتباههم وكسب فضائلهم، فهو فرد يفلح في ان تكون له تجارب صوفية؛ وفي مجال

الشامانية يتم التعبير عن الخبرة الصوفية في غيبوبة الشامان الحقيقية أو المصطنعة. ويتم الوصول الى حالة الوجد عن طريق القرع الايقاعي على الطبل، والرقص، والغناء الذي يصبح اشد صخباً وهياجاً. وكان مفعول الهياج يشتد عند الاوب-اغريين والشعوب القبلية الأخرى التي موطنها الاصلي هو اسيا السيبيرية عن طريق وسائل مصطنعة، على سبيل المثال، بأكل فطر الامانيت السامة؛ أو احراق اعشاب متنوعة تُحدث دخاناً مُسكراً، وفي فترة أحدث تدخين التبغ، واستهلاك الكحول. ويدل الوجد الشاماني على طيران الروح الى السماء، أو طوافها حول الأرض، أو نزولها الى عالم ما تحت الأرض، بين الموتى؛ والشامان يتولى هذه الرحلات الوجدية لأربعة اسباب هي: ليلتقي الإله السماوي وجهاً لوجه، ويُحضر له تقدمات من الجماعة البشرية التي يمثلها؛ أو للبحث عن روح انسان مريض، من المفترض انها هامت بعيداً عن جسده أو اختطفتها الشياطين؛ أو ليرشد روح إنسان ميت الى مسكنها الجديد في العالم الاسفل؛ أو ليضيف الى معرفته خبرة بالتردد الى الكائنات العليا غير البشرية؛ تأتي الذروة الوجدية للجلسة الروحية في المرحلة التي من المفترض ان يلتقي بها الشامان بأرواحه المساعدة، ويسافر معها الى العالم الآخر، أو يُبعد، مثلاً، شيطان مريض استقر في أحد المرضى.

6.ان الشامان يتعلم عبر دخوله في العضوية ما يجب عليه ان يفعله عندما تتخلى روحه عن جسده- وقبل كل شيء- كي يوجه نفسه من المناطق المجهولة التي يدخلها في اثناء الغيبوبة؛ انه يتعلم ان يسبر المستويات الجديدة للوجود التي تكشفها خبراته الوجدية؛ كما يعرف السبيل الى مركز العالم: الثقب الذي

في السماء والذي من خلاله يمكن ان يحلق الى السماء العليا، أو الفتحة التي في الأرض والتي من خلالها يمكن ان يهبط الى العالم الاسفل؛ وهو يعرف سلفاً العقبات التي يمكن ان يصادفها في رحلاته، ويعرف كيف يتغلب عليها. وباختصار يعرف السبل المؤدية الى السماء والى الجحيم، وكل هذا قد تعلمه في اثناء تدريبه منفرداً، أو بإرشاد الشامانات الاساتذة. والشامان لقدرته على ترك جسده بأمان، يستطيع ان يتصرف تصرف الروح، إذا اراد ذلك اي انه في حالة الغيبوبة من المفترض انه يستطيع ان يطير عبر الهواء، ويصير غير مرئي، ويدرك الاشياء من مسافات كبيرة، ويصعد الى السماء، أو ينزل الى الجحيم، ويرى ارواح الموتى، ويستطيع ان يمسك بها، ولا تنفذ إليه النار؛ كما ان لديه القدرة على ان يتحول الى حيوان، وان يقتل عن بعد، ويتنبأ بالمستقبل.

7.ان المشترك في الأجزاء الشرقية والوسطى في سيبيريا، وعلى سبيل المثال، عند اليوكاجير، والاڤنكي، والياقوت، والمانتشو، والناناي، والاورتشي، هي جلسة الحيازة الروحية، التي في اثنائها تدخل الروح الرئيسة المساعدة للشامان في جسده، وتتكلم من خلاله. فيتماثل الشامان مع الروح تماماً؛ وهو من المفترض ان يتحول في الحقيقة الى الروح، ويُظهر هذا التبدل في ايماءاته وحركاته وكلامه؛ ويحضر الجلسة أيضاً شخص آخر، هو في العادة معاون الشامان، يصيح الشامان، ويكلم الروح. وفي المناطق التي يكون فيها نمط غيبوبة الحيازة شائعاً، يكون التفسير المألوف للمرض هو ان روحاً شريرة قد دخل في الشخص المريض، ومهمة الشامان عندئذ هي ان يُبعد الروح الشريرة، وللقيام بذلك يأخذ الشامان الروح الشريرة الى نفسه، وبعبارة ادق: يتحول

هو الى الشيطان؛ وثمة جلسات غيبوبة حيازة يسافر فيها الشامان، مع ارواحه المساعدة الى العالم الآخر، من اجل ابعاد الروح الشريرة.

8.قد يوهم الشامان كذلك بأن الأرواح المساعدة حاضرة في الجلسة الروحية من دون ان يندمج معها، ويكشف شعب التشوكتشي عن براعة عظيمة في إظهار الأرواح بتقنية التكلم البطني الذي يصدر المتكلم به اصواتاً تبدو آتية من مصدر غيره؛ ويحضر الشامان عن طريقها الى الجلسة روحاً بعد أخرى، ويتمكن الجمهور من سماع الأرواح وهي تتكلم خارج جسد الشامان. ولقاءات الشامان مع الأرواح من دون حيازة معروفة كذلك في سيبيريا الغربية وآسيا الوسطى؛ وعند التتار المينوسنكيين(Minusink Tatar) يرش معاون الشامان الماء حوله لتشربه الأرواح حتى لا تقترب كثيراً من الشامان. واذا كانت الفكرة الرئيسة للجلسة الروحية هي طيران الروح، أو رحلة الشامان الى العالم الآخر، فإن اظهار الأرواح لا تكون مثيرة كما هي مثيرة في الجلسات الروحية الخاصة بحيازة الأرواح. والجلسات الروحية المثالية في الأنحاء الغربية والشمالية من سيبيريا، عند السامودي والأوب-اغريين مثلاً، هي الجلسات التي يتم فيها تصور الشامان مسافراً الى العالم الآخر مع ارواحه المساعدة، وليس التوكيد هنا منصباً على تبديل الدور والتحدث الى الأرواح بل على وصف رحلة الشامان، وفي هذا النمط من الجلسة تتعمق عادة غيبوبة الشامان باستمرار وتنتهي بفقدان الوعي. والجلسات من النمط القائم على الحيازة أو التكلم البطني على حد سواء، كثيراً ما يدعو الشامان ارواحه مرة اخرى بعد عودته، بالغناء وقرع الطبل.

9.في العادة تنتهي الجلسة الروحية بحدث يُبعد الشامان في اثنائه ارواحه المساعدة، ويجيب عن اسئلة الحاضرين، ويصدر التعليمات بما يجب القيام به من الاضحيات أو الاستعطافات المطلوبة[1].

يمكن ان نقدم امثلة عن الجلسات الشامانية السيبيرية، اذ تتحدث قبيلتا البوريات والياقوت وغيرهما من القبائل السيبيرية عن الشامانات البيض والشامانات السود، والبيض لهم علاقة بالآلهة، وللسود لهم علاقة بالأرواح، ولاسيما الأرواح الشريرة. وتختلف ملابسهم، فهي بيضاء، كما هو الحال عند البوريات، بالنسبة الى الشامانات البيض، وزرقاء بالنسبة الى الشامانات السود. وان اهم عملية يقوم بها الشامان الابيض الالطائي هي الصعود الى السماء، فمثلاً عندما يضحي بالحصان المقدم الى إله السماء، فإنه وفي حالة غيبوبة يُسيّر روح الحيوان الى رحلتها نحو عرش باي اولغن(Bai Ulgen)، رب العالم العلوي. والشامان بارتدائه حلته الاحتفالية يستحضر عدداً غفيراً من الأرواح، ويقرع طبله، ويبدأ صعوده السماوي؛ وبعناء يمثل بالحركات والاشارات الاجتياز الصعب لسماء بعد سماء حتى السماء التاسعة، واذا كان قوياً حقاً فيستمر حتى السماء الثانية عشر، أو حتى الى اعلى. وعندما يذهب الى العلو، الى حيث تسمح قدراته، يتوقف ويخاطب باي اولغن بتخشع، مبتهلاً إليه ان يمنحه حمايته وبركاته. ويعلم الشامان من الإله هل قُبلت الاضحية؛ كما يستقبل النبوءات المتعلقة بالجو والحصاد القادم. والحدث

---

[1]) Eliade, Shamanism: An Overview,P.8272; Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism,P.8285-8286.

البارز هو لحظة الوصول بالوجد الى الذروة حيث ينهار الشامان، ويغدو منهك القوى، ويظل دون حراك ولا كلام، وبعد مدة يفرك عينيه، ويظهر في حالة استيقاظ، ويرحب بالحاضرين وكأنه يحييهم بعد طول غياب[1].

ان للصعود السماوي للشامان الالطائي نظيره في هبوطه الى العالم الاسفل، وهذه المراسيم الدينية اصعب بكثير، وعلى الرغم من انه يمكن ان يباشرها الشامان الابيض والشامان الاسود على السواء، فمن الطبيعي انها من اختصاص الشامان الاسود. ويقوم الشامان بالنزول العمودي الى المستويات أو المناطق المتتابعة تحت الارض التي تدعى پوداك(Pudak) اي العوائق، ويصحبه اسلافه وارواحه المساعدة، وعند العائق السابع يرى قصر ايرليك خان(Erlik Khan) رب الموتى، المبني من الحجر والصلصال الاسود والمحمي من كل الجهات. وهناك ينطق الشامان صلاة طويلة الى ايرليك خان، ثم يعود الى الخيمة المستديرة ويقص على الجمهور نتائج رحلته[2]. اذن تتم عمليات الهبوط الى العالم الاسفل بصورة خاصة للعثور على روح شخص مريض واعادتها، أو لتشييع روح الميت الى مملكة ايرليك خان، وفي عام 1884 نشر س. ف. رادلوف(C. V. Radlov) وصف جلسة روحية نُظمت لتشييع روح امرأة الى العالم الاسفل بعد 40 يوماً من وفاتها. وتحدث المراسيم في المساء، ويبدأ الشامان بالدوران حول الخيمة، ويقرع طبله، ثم يدخل الخيمة، ويذهب الى النار، ويستحضر روح الميتة، وفجأة يتغير صوت الشامان، ويبدأ الكلام بصوت

---

[1]) Eliade, Shamanism: An Overview,P.8272.

[2]) Ibid,P.8272.

ذي طبقة رفيعة عالية، لأن المرأة الميتة هي من المفترض التي تتكلم، اذ انها تشتكي من انها لا تعرف الطريق، وانها خائفة من مفارقة اقاربها، وما الى ذلك، ولكنها في آخر الأمر تقبل بقيادة الشامان لها، ويخرج الاثنان معاً الى مجال ما تحت الأرض؛ وعندما يصلان، يجد الشامان ان الموتى يرفضون السماح للقادم الجديد بالدخول؛ وتُظهر الصلوات انها عديمة الجدوى، فيقدم لها الشراب، وتصبح الجلسة الروحية اكثر انتعاشاً بالتدريج، حتى الى درجة غريبة عجيبة، لأن الارواح تبدأ، من خلال صوت الشامان تتشاجر في الكلام وتغني معاً، وأخيراً ترضى ان تستقبل المرأة الميتة. ويمثل الجزء الثاني من الشعيرة رحلة العودة، اذ يرقص الشامان، ويسقط على الأرض فاقد الوعي[1].

ان الوظيفة الاهم المرتبطة بالشامان في سيبيريا هي الشفاء، وتوجد في هذه المنطقة عدة تصورات لسبب المرض، فكان الناناي والاولتشي السيبيريون مثلاً قد قسموا الأرواح إلى أرواح عادية ودعوها سيفين وأرواح شريرة ودعوها أمبان، وإذا كان التفاهم لا يزال ممكنا مع الأولى، فان هذه الأخيرة ترفض رفضاً قاطعاً ان تنزل عند إرادة الإنسان، وقد يكون بعض السيفين أرواحاً تساعد الشامان على تأدية أعماله، أما الباقي منها فقد يأتي إلى أي إنسان ويرغمه على الاهتمام به، ويحدث هذا كما يرى الناناي والاولتشي بان تمس الأرواح الناس فيقع هؤلاء صرعى الأمراض، ولم تلجأ الأرواح إلى مثل هذا السلوك إلا لكي ترغم الإنسان على إطعامها، ويمكن ان تأخذ شكل بشر أو

[1]) Ibid,P.8272-8273.

صور الحيوانات[1]. ولكن اغتصاب الروح هو السبب الأوسع انتشاراً من غيره بكثير. ويُعزى الداء الى ان الروح قد ضلت بعيداً أو انها قد سُرقت، ويُختزل العلاج من حيث المبدأ في العثور عليها، والإمساك بها، وإلزامها بأن تعود الى مكانها الأول في جسد المريض[2].والشامان هو من بين سائر المتعاملين مع الشأن المقدس، الاختصاصي المتميز والمتفوق في الوجد والانخطاف، وبفضل كفاءته في الوجد، أي لكونه يقوى على هجر جسده، فهو يقوم برحلات على الصعيد الروحي إلى جميع المناطق الكونية؛ والشامان هو الشافي من العلل والأمراض، وهو من دون سائر الناس بمقدوره ملاحقة روح المريض التائهة، ويقبض عليها ثم يعيدها إلى جسدها[3]. ففي الأزمنة القديمة كان الشامانيون يقومون بمداواة المرضى واعادة روح المريض من خلال الدخول في غيبوبة من اجل البحث عن الروح المفقودة، حيث يذهب الشامان الى عالم الأرواح ويسيطر على بعض الأرواح ويحاول بواسطتهم اخراج الأرواح الشريرة من جسد الشخص المريض. وتتحدث أسطورة لدى البوريات في إقليم اركوتسك السيبيري بأن مورغان كارا الشامان الأول لقبيلتهم كان ماهراً إلى درجة انه استطاع ان يحرر النفوس ويستعيدها من الموت، فما كان من أمير عالم الأموات إلا تقدم بشكوى إلى اله السماء الأكبر، وعند ذلك قرر الإله ان يخضع الشامان إلى اختبار. لهذا الغرض سيطر على روح احد الناس وأخذها

---

[1]) م. ف. البيديل، سحر الأساطير: دراسة في الاسطورة والتاريخ والحياة، ترجمة: حسان ميخائيل اسحاق،(دمشق: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة،2008)،ص202؛ يحيى، السحر والطب في الحضارات القديمة،ص90.

[2]) Eliade, Shamanism: An Overview,P.8273.

[3]) الياد، الأساطير والاحلام والاسرار،ص99-100؛ يحيى، السحر والطب في الحضارات القديمة،ص310.

إليه، وحبسها في قنينة ووضع إبهامه في فمها، وعندما تعرض الرجل المعني إلى المرض توسل أقاربه إلى مورغان كارا طالبين المساعدة. وقد بدأ في الحال بمهمته وراح يبحث في كل مكان عن النفس، في الغابات، في الماء، وفي وديان الجبال، حتى في عالم الأموات، ولكن دونما جدوى. وأخيرا صعد الشامان وجلس على الطبل وهو أداته التي يستخدمها للتنقل، من اجل الوصول إلى العوالم العليا. وحتى هناك كان عليه ان يبقى زمناً طويلاً باحثاً عن الروح، إلى ان لاحظ إنها محبوسة في قنينة وان الإله الأعلى يضع إبهامه في فمها. عند ذلك حول الشامان نفسه إلى دبور ولسع الإله في جبهته مما اضطره إلى رفع الإصبع عن فم القنينة. وبهذه الطريقة تمكن الشامان من ان ينقذ الرجل المريض. وعندما رأى الإله كيف نزل الشامان إلى الأرض ثانية وهو جالس على طبله تملكه الغضب وأضعف من سلطة الشامانات في حين قسم الطبل إلى قسمين[1].والشامان لدى هذه القبيلة يعقد جلسة روحية افتتاحية لتحديد هل ضلت الروح بعيداً عن المريض أم انها سُرقت منه وهي أسيرة في سجن ايرليك خان، ويبدأ الشامان بعد ذلك البحث عن الروح، فإذا وجدها على مقربة من القرية، فإن اعادتها للجسد امر سهل؛ واذا لم يجدها، بحث في الغابات، والصحاري، وحتى في قاع البحر. ويدل الإخفاق في العثور على الروح على انها سجينة ايرليك خان، والملاذ الوحيد هو تقديم الأضاحي الثمينة؛ وفي بعض الأحيان يطلب ايرليك خان روحاً محل الروح التي سجنها؛ فتكون

---

[1]) كورتل، قاموس اساطير العالم،ص96-97؛ جوزيف كامبل، البطل بألف وجه، ترجمة: حسن صقر،(دمشق: دار الكلمة،2003)،ص208؛ يحيى، السحر والطب في الحضارات القديمة،ص314.

المشكلة عندئذ هي العثور على روح متاحة. وبموافقة المريض، يقرر الشامان من سيكون الضحية، وبينما تكون الضحية نائمة، يتخذ الشامان شكل نسر، ويحط عليها، وينتزع روحها، ويذهب بها الى عالم الاموات، ويقدمها الى ايرليك خان، الذي سيسمح له عندئذ ان ينقل روح المريض، ومن المفترض عند ذاك ان تموت الضحية ويشفى المريض، ولكنه-اي المريض- في كل الأحوال لم يفز إلا بمهلة، لأنه كذلك سيموت بعد ثلاث أو سبع أو تسع سنوات[1].وقد ترك لنا احد الرحالة الذين زاروا في القرن الثامن عشر اللاپيين وهم قبائل أقصى الشمال في سيبيريا، وصفا حيا عن هذه الطريقة، والتجول الذي يقوم به الشامان في عالم الأموات من اجل السيطرة على الروح التي تؤذي المريض على الأرض، أو إعادة روحه الضالة إليه. إذ يجري الطقس بعد حلول الظلام، لان العالم الأخر، إنما هو مكان الليل الأبدي. وكان الأصدقاء والجيران يجتمعون في خيمة المريض المضاءة بنور خافت، ويتبعون متوترين حركات الشامان. في بدء الطقوس التي يقوم بها، يستدعي الشامان الأرواح القادرة على المساعدة، وهي تعلن عن حضورها وتكون مرئية فقط من قبله. وتتقدم سيدتان بأبهة احتفالية، ولكن دونما نطاق، وبقلنسوة من الكتان ثم رجلان دونما نطاق ومع قلنسوة، ثم تأتي فتاة غير بالغة لمساعدة الشامان. والشامان يعري رأسه ثم يفك نطاقه وسوار حذائه، ويغطي وجهه بيده، ثم يبدأ بالدوران الهائج صانعاً دوائر عديدة، إلى ان يصرخ فجأة بحركات متوحشة قائلا: الرنة جاهزة، القارب

---

[1] ([1]) Eliade, Shamanism: An Overview,P.8273.

يحيى، السحر والطب في الحضارات القديمة،ص316.

واضح". ثم يأخذ بلطة ويبدأ بالضرب بها على الركبة، ثم يلوح بها تجاه النساء الثلاث. بعد ذلك يمد يده العارية وينتزع قطعة خشب متوهجة من النار، ثم يدور مهتاجا لثلاث مرات حول كل واحدة من النسوة، وفي النهاية يسقط مغشيا عليه مثل الميت. أبان هذا الوقت كله لا يجوز ان يلمسه احد، وما دام متصلبا في غيبوبته يجب ان يراقب بدقة شديدة، إلى درجة انه لا يجوز ان تستقر ذبابة عليه، لقد فارقته ألان روحه وشاهدت الجبال المقدسة مع آلهتها. والنسوة يتهامسن مع بعضهن البعض حول التوقعات التي تتساءل عن المكان الذي يوجد فيه الشامان في العالم الأخر. فإذا ما سمين الجبل الصحيح، حرك الشامان يده أو قدمه، وفي النهاية يأخذ طريق العودة. ولكن يمكن ان يحدث ان النسوة لا يتوصلن إلى معرفة موطن إقامة الشامان في العالم الأخر، وفي هذه الحالة يكون من الممكن ان روحه تضل طريق العودة إلى جسده. ومن الممكن أيضا ان روح لشامان معادٍ تدخله أثناء صراعه أو تضله عن طريق العودة، وكثير من الشامانات لم يتسن لهم الرجوع. بعد عودته ويبدأ بنطق الكلمات التي استمع إليها في العالم الأخر، ويكون صوته ضعيفا ومتهالكا. بعد ذلك تبدأ النسوة بالغناء، في حين يستيقظ الشامان ببطء شديد، من غيبوبته ويشرح علة المريض أو يعطي نوع الضحية التي يجب تقديمها، وفي النهاية يحدد المدة الزمنية التي يتطلبها شفاء المريض[1].

[1]) كورتل، قاموس أساطير العالم،ص133؛كامبل، البطل بألف وجه،ص104-105؛ يحيى، السحر والطب في الحضارات القديمة،ص314-315.

ومن المهام الاخرى للشامان هي الطقوس المرتبطة بالصيد، إذ يظهر ان الشامان لدى الشعوب السيبيرية لعب دوراً هاماً في الصيد والقربان على حد سواء، ففي مجتمعات الصيد تكون مهمة الشامان الرئيسة هي ضمان نجاحه من جهة، وان يُلطّف من شراسة العالم الآخر المانح للطريدة عن طريق القرابين من جهة اخرى. فـ البوريات في سيبيريا يعدون الحيوانات التي يتغذى بها الانسان، كالأيائل والاسماك، تمتلك ارواحاً يتملّكها الشامان بواسطة زوجاته الحيوانية الما فوق طبيعية، خلال طقس يسبق فترة الصيد، ومقابل ذلك فإن الشامان يقلص من القوة الحيوية للحيوانات كما يقلص من القوة الحيوية للصيادين، في وقت تكون الهدايا والقرابين لها القدرة على تأجيل انتقام العالم الآخر من أولئك الصيادين[1].

[1]) پيران، الشامانية، ص84-85.

ثانياً: بقاء التقاليد الوثنية والسحرية في المجتمع الروسي.

اكدنا سابقاً ان انتشار المسيحية لم يقضِ نهائياً على الطقوس والمعتقدات الوثنية، بل نجدها قد بقت متغلغلة داخل المجتمع الروسي بشكل غير رسمي لاسيما في المناطق الريفية، إذ ترافق انتشار المسيحية في روسيا امتزاجها بالديانة القديمة، وتم هذا برعاية وعناية القيادة الدينية بالذات، لتجعل من الايمان الجديد اكثر قبولاً لدى الشعب، وقد جرى توقيت الاعياد القديمة الزراعية وغيرها مع أيام التقويم المسيحي؛ وامتزجت الآلهة القديمة تدريجياً بالقديسين المسيحيين، وفقدت اكثرها اسماؤها، غير انها احتفظت بوظائفها وصفاتها لتنقلها الى هؤلاء القديسين[1]؛ ويمكن ان نقدم نماذج عن هذه الحالة، إذ شغلت مريم العذراء اهمية كبيرة في المجتمع الروسي، ولكن اضفيت عليها هنا بعض الصفات التي استقيت من مصادر وثنية، ففي بعض الاحيان سميت باسم گراموڤيتسا(Gramovitsa)(مريم الرعد)(Mary The Thunderer) وهو تجسيد لمريم العذراء، وهو جانب تظهر فيه مريم كعمود من نار، وهي سمة كانت تُنسب في العهود السحيقة الى الإله پيرون، وفي هذا الجانب هي المسؤولة عن قوس قزح، وقد عدوه الجسر الذي يربط بين السماء والارض، والذي يسمح للمطر بالتدفق بحرية فوق الحقول[2]. ويمكن ان نلاحظ ايضاً ان صفات الآلهة الوثنية بقيت موجودة في الصفات التي اضفيت على القديسين المسيحيين، فقد استمر الإله پيرون في تلقي فروض العبادة

---

[1]) توكاريف، الأديان في تاريخ شعوب العالم،ص228.

[2]) Kennedy, Encyclopedia of Russian and Slavic Myth and Legend,P.99.

باعتباره إله الصاعقة تحت اسم القديس ايلياس(Elias)/ايلئيا(Il'ya) وهو الاسم الروسي لأسم النبي ايليا(Elijah) الوارد في العهد القديم، وقد ارتبطت به في روسيا صفات الإله الوثني پيرون، منها القدرة على استدعاء المطر والنار من السماء والسلطة على الحصاد[1]. والقديس جورج(Saint George) كذلك الذي ارتبطت به تقاليد اسطورية تخص آلهة وثنية قديمة؛ وهذا القديس هو شفيع روسيا، وقد برز تفوقه في القرن السادس عشر الميلادي، وهو كقديس محارب اخذ جوانب من صفات الإلهين الوثنين پيرون وسڤانتوڤيت(Svantovit)(وهو احد آلهة البلطيق)، وحسب التقاليد المسيحية، فإن القديس جورج هو البطل الذي ذبح التنين وأذهل الأرض وسكانها، وقد عُد هذا القديس رمزاً لتدعيم سيادة موسكو، وربما تمثل صورته الحربية في الفن وهو جالس على حصان ابيض كبير، ويحمل بيده الرمح، صورة تقليدية ترمز لحاكم موسكو المدافع عن الارض. وقد ظهر القديس لأول مرة باعتباره الراعي للحكام الروس عام 1415م تحت حكم امير موسكو العظيم ڤاسيلي الثاني، ثم تعززت مفهوم هذه الرعاية تحت حكم ايڤان الثالث العظيم، وتزايدت شعبية هذا القديس تدريجياً في موسكو الى درجة ان 41 كنيسة كانت مكرسة له. وعُد يوم 23 نيسان هو عيد القديس جورج، وهو بداية العام الزراعي، حيث عُد هذا القديس مسؤولاً عن خصوبة الارض، وفي بيلاروسيا، وكما هو الحال في مناطق اخرى في روسيا فإن الاحتفالات التي تقام في هذا اليوم ارتبطت بطقوس وثنية،

---

[1]) Kennedy, Encyclopedia of Russian and Slavic Myth and Legend,P.80, 115; Marija Gimbutas,"Perun", in: Encyclopedia of Religion,(New York,2005),Vol: 10, P.7062;

توكاريف، الأديان في تاريخ شعوب العالم،ص228.

ففي هذا اليوم توضع علامة على شاب يدعى جورج يمثل القديس، ويرتدي الناس ملابس ترمز الى الخضار والزهور، وينشدون الاغاني التي تحفز الارض على الخصوبة؛ وفي اوكرانيا يتضمن الاحتفال في هذا اليوم عناصر مسيحية ووثنية، اذ يقود الكاهن مجموعة من الناس الى الحقول لتبارك التربة، ومن ثم تدور المجموعة، أو الكاهن وحده حول نفسه، من اجل اضفاء صبغة من الخصوبة على الارض؛ وهناك يمكن ان نلاحظ ان القديس جورج قد حل محل آلهة الخصب القديمة، وفي تلك الطقوس يجري وصفاً لجميع جوانب الزراعة من النباتات الى الماشية، كما يجري الحديث ان هذا القديس اخترق الارض بفرسه الابيض من اجل احياء التربة، وجميع الحياة الساكنة داخلها، وان سلطته تلك بأمر من مريم العذراء[1]. وارتبط إله القطيع ڤيليس باسم القديس ڤلاسيا؛ والإلهة موكوش ارتبط باسم القديسة باراسكيڤا أو القديسة بياتنيتسا(الجمعة)[2].

كان الروس يعتقدون-وهو معتقد لدى الشعوب القديمة- ان الأموات يقدمون المساعدة للبشر، وعادة ما يذهب الاحياء لاستشارة الاموات في مقابرهم للحصول على نصحهم، لأن الاموات برأي الاقدمين هم اكثر تنويراً من الاحياء، اذ ينظر الناس الى الاموات وكأنهم يمتلكون الالغاز والخفايا، فعلى مقربة من اضرحة الاسلاف يذهب الناس من اجل البحث عن النبوءة، والى مدافن الاجداد يسعى الشعراء من اجل التماس الالهام، فالعالم الاخر هو

[1]) Kennedy, Encyclopedia of Russian and Slavic Myth and Legend,P.90.

[2]) توكاريف، الأديان في تاريخ شعوب العالم،ص228.

موطن العلم والحكمة، وان سيد العالم الاخر يحمل المعرفة الكلية، اما الاموات فلديهم العلم بالمستقبل، علم بما سيكون في الايام المقبلة[1]. ويؤكد الفولكلور الشعبي الروسي على اهمية الموتى بالنسبة للأحياء، ففي حكاية شعبية في روسيا تتحدث عن شيخ حكيم له ثلاثة اولاد هم: توم، وباكوم، وايڤانوشكا، وقد عاش هذا الشيخ مع اولاده حتى حانت اخيرا ساعته، واقترب من شفا الموت، فنادى على اولاده الثلاثة وقال لهم: "يا فلذات كبدي، دنت ساعتي، ويجب عليكم ان تتموا رغبتي. على كل واحد منكم ان يأتي الى قبري، ويمضي ليلة واحدة معي: انت يا توماس، تأتي في الليلة الاولى، وانت يا باكوم في الليلة الثانية، وانت يا ايڤانوشكا فلك الليلة الثالثة". وعد الاخوان الكبيران بأن ينفذا وصية والدهما، اما الثالث فلم يعده واكتفى بحك رأسه فحسب. مات الشيخ، ودفن، ثم تذكر ابنائه وصيته، والتي تقضي بأن يذهب توماس في الليلة الاولى الى القبر، لكنه كان شديد الكسل، أو على الارجح كان خائفا، فقال لأخيه الصغير ايڤانوشكا: "علي ان استيقظ باكراً غداً صباحاً، اذ يجب ان ادرس الحنطة، فأذهب عوضا عني الى قبر والدنا". وافق ايڤانوشكا، واخذ معه قطعة من خبز الجاودار الاسود، وذهب الى القبر، واضطجع قربه ونام. وعندما اعلنت الكنيسة حلول منتصف الليل؛ صفّرت الرياح، ونعق البوم في الاشجار، فُتح القبر، وخرج الشيخ وسأل: "من هناك؟"، اجابه ايڤانوشكا: "هذا انا"، فقال الوالد: "حسنا يا ولدي العزيز، سوف اكافئك لطاعتك، ثم عاد الشيخ الى قبره، وذهب ايڤانوشكا الى المنزل، وعندما سأله اخواه عما

[1]) الياده، التنسيب والولادات الصوفية،ص86، 128.

حدث لم يخبرهم شيئا. وفي الليلة الثانية حان دور باكوم للذهاب الى قبر والده، ويبدو انه كان خائفاً ايضاً فقال لأخيه الصغير: "سيكون يومي مزدحماً غداً، فأذهب عوض عني الى قبر والدنا". فوافق ايڤانوشكا، واخذ معه قطعة فطيرة السمك، وذهب الى القبر ونام. وعند منتصف الليل فُتح القبر وخرج الشيخ مجدداً، ودار بينهما الحديث ذاته، وعندما عاد ايڤانوشكا الى المنزل لم يخبر اخواه بما حدث. وفي الليلة الثالثة حان دور ايڤانوشكا، الذي ذهب الى القبر واخذ معه بضع كعكات، وارتدى معطفا من فراء الماعز. وعند منتصف الليل خرج والده من القبر، واخبره بأنه سيكافئه على طاعته وهناك صرخ بصوت هادر: "انهض ايها الحصان الكستنائي الاسرع من الرياح، اظهر امامي عند حاجتي الى الخدمة، قف على قوائمك كما العشب في وقت العاصفة". وسرعان ما ظهر حصانا يعدو، فتهتز الارض تحت حوافره، وتلتمع عيناه كنجمتين، ويخرج الدخان من فمه، واذنيه على شكل غيمة. ثم تكلم الحصان بصوت بشري: "بم تأمرني؟"، فتقدم الشيخ منه، وفجأة دخل في اذنه اليمنى، ليخرج منها بعد قليل شاباً وسيماً وقوياً، لم ير العالم مثله من قبل، وقال: "الان اسمعني يا بني، اهبك هذا الحصان، وانت يا حصاني وصديقي الامين، عليك ان تخدم ابني كما سبق وخدمتني"، ثم سرعان ما عاد الشيخ الى قبره[1].

كما يمكن ان نلاحظ ان الطقوس السحرية ظلت تمارس في روسيا حتى اوقات متأخرة، فقد مارس سكان سيبيريا طقوساً سحرية من اجل الشفاء

[1]) فيرا دي بلومينتال، الجبل الذهبي: حكايات شعبية من روسيا، ترجمة: مايسة عواد،(ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث،2010)،ص66-69؛ يحيى، عالم الأموات،ص68-70.

من المرض، فقد تعود الكورياكيون الذين يسكنون سيبيريا الشمالية-الشرقية، ان يصرفوا الأوبئة والطاعون عنهم عن طريق ذبح كلباً ويربطون الأمعاء حول عمودين ويمرون تحتها، ومما لاشك فيه إنهم يعتقدون أنهم بهذه الوسيلة يطردون روح المرض الذي يجد في أمعاء الكلب حاجزاً لا يقهر[1]. وان كان القارئ يعتقد ان تلك الطقوس السحرية ترتبط فقط بالسيبيريين فإن طقوساً سحرية اخرى مورست من قبل الروس للتخلص من المرض من مواقع اخرى من روسيا حتى تاريخ قريب، إذ كان الفلاحون الروس حتى قبيل الحرب العالمية الأولى يمارسون طقساً غريباً يريدون به الحفاظ على قريتهم من وباء الطاعون أو الكوليرا، إذ تقوم النسوة العجائز في منتصف الليل باجتياز القرية وهن يستدعين سراً النساء الأخريات حتى لا يعرف الرجال شيئا عن الأمر، ويتم اختيار تسع فتيات عذارى وثلاث أرامل ويؤخذن إلى خارج القرية، وهناك ينزعن ملابسهن جميعها، ما عدا القميص التحتاني، وترسل العذارى شعورهن على أكتافهن وتغطي الأرامل رؤوسهن بشال ابيض، ثم يربطن إحدى الأرامل إلى محراث تسحبه أرملة أخرى، وتمسك العذارى التسع بالمناجل، بينما تقبض بقية النسوة على مواد مختلفة ذات مظهر مخيف ضمنها جماجم لحيوانات، ثم يسير الجميع حول القرية، وهن يولولن ويصرخن، ثم يحرثن أخدودا لتتمكن أرواح الأرض القوية من الظهور، وكذلك لمنع وصول الشر[2].وفي بيلاروسيا(روسيا البيضاء) كان سكان القرى يحاولون تسخير

---

[1]) جيمس فريزر، الفولكلور في العهد القديم، ترجمة: نبيلة ابراهيم، مراجعة: حسن ظاظا،(القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،1972)،ص246.

[2]) لطفي الخوري، معجم الأساطير،(بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة،1990)،ج2،ص193.

القوى الخطرة الكامنة في التوائم(اعتقد كثير من الشعوب بخطورة التوأمين) لحماية القرية وسكانها وحيواناتها وحقولها من خطر الرزايا المحدقة مثل الأوبئة والبرد والأمراض المعدية، فعندما كانت البلية تقترب من حدود القرية كانوا يسرعون إلى تأدية طقس الحراثة، وكان التوائم يشاركون فيه، إذ يأخذ الإخوان التوأمان الثورين التوأمين، ويأخذان بالإضافة إلى ذلك المحراث المصنوع من شجرة مزدوجة الجذع أي كأنها شجرة توأمية ثم يحرثان القرية ليلا ثلاث مرات ويرسمان أثناءها حلقة سحرية[1]. ومن اجل اسقاط المطر كانوا يمارسون طقساً سحرياً، إذ كان الفلاحون في روسيا حتى القرن التاسع عشر يُخرجون من القبر في المنطقة التي ينالها الجدب جثة شخص مات من الافراط في الشراب فيغرقونها في اقرب مستنقع أو بحيرة وهم مقتنعون تماماً ان ذلك سيؤدي الى سقوط المطر الذي هم في اشد الحاجة إليه. ففي عام 1868 حين توقع الناس سوء المحصول نتيجة لاستمرار الجدب قام اهالي احدى القرى في مقاطعة تاراشانسك(Tarashchansk) بإخراج جثة احد المنشقين من جماعة الراسكولنيك(Raskolnik)(وهم جماعة منشقة عن الكنيسة الارثوذكسية) كان قد مات في شهر كانون الاول السابق وانهال بعضهم بالضرب على الجثة أو على ما بقي منها- حول الرأس- وهم يصيحون: "اعطنا مطراً"، بينما اخذ الباقون يصبون عليها الماء من خلال غربال[2].

---

[1]) البيديل، سحر الأساطير،ص197.

[2]) جيمس فريزر، الغصن الذهبي: دراسة في السحر والدين، ترجمة: احمد ابو زيد،(القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر،1971)،ج1،ص272.

المصادر.

المصادر العربية.

1. ابجيانزي وزاريت، ريتشارد واوسكار، لينين والثورة الروسية، ترجمة: محي الدين مزيد، مراجعة: امام عبد الفتاح امام،(القاهرة: المجلس الاعلى للثقافة،2003).
2. ابن الاثير، عز الدين (ت 630هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: محمد يوسف الدقاق،(بيروت: دار الكتب العلمية،1987)،ج7.
3. ابو زيد، عبد الوهاب ، خزانة الشعر السنسكريتي،(ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث،2019).
4. ارنولد، ت. و. ، الدعوة الى الإسلام: بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، ترجمة: حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوي،(القاهرة: مكتبة النهضة المصرية،1947).
5. اسماعيل، سامح محمد ، ايديولوجيا الاسلام السياسي والشيوعية،(بيروت: دار الساقي،2010).
6. بلومينتال، فيرا دي ، الجبل الذهبي: حكايات شعبية من روسيا، ترجمة: مايسة عواد،(ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث،2010).
7. البيديل، م. ف.، سحر الأساطير: دراسة في الاسطورة والتاريخ والحياة، ترجمة: حسان ميخائيل اسحاق،(دمشق: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة،2008).
8. پيران، ميشال، الشامانية: فلسفة للحياة، ترجمة: ادريس كثير،(ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للسياحة والثقافة،2013).
9. تشايلد، ڤ. گوردن، التطور الاجتماعي، ترجمة: لطفي فطيم،(القاهرة: مؤسسة سجل العرب،1966).
10. التكريتي، هاشم صالح، مقدمة في تاريخ روسيا الحديث: قيام الدولة الروسية وبداية توسعها،(بغداد: دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع،2015).
11. توكاريف، سيرغي أ.، الأديان في تاريخ شعوب العالم، ترجمة: احمد م. فاضل،(دمشق: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع،1998).
12. الخوري، لطفي ، معجم الأساطير،(بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة،1990).
13. زكار، سهيل، الاناجيل، الاناجيل: النصوص الكاملة،(دمشق: دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع،2008).

14. زيعور، علي، اوغسطينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطة،(بيروت: دار اقرأ،1983).
15. صوريا، جورج، 300 يوم من الثورة الروسية: مشاهدات ووثائق، ترجمة: اكرم ديري،(القاهرة: دار المصرية للكتب،1972).
16. طقوش، محمد سهيل ، تاريخ مغول القبيلة الذهبية والهند،(بيروت: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع،2007).
17. عبد الوهاب، احمد، اختلافات في تراجم الكتاب المقدس وتطورات هامة في المسيحية،(القاهرة: مكتبة وهبة، بلا. ت).
18. عبدالله، ايناس سعدي، من القيصرية الى الاشتراكية: تاريخ روسيا الحديث 1894-1917،(بغداد: اشوربانيبال للكتاب،2019).
19. غريمال، بيار وآخرون، تاريخ اوروبا العام،(بيروت: منشورات عويدات،2012)،ج1.
20. فرنادسكي، جورج، تاريخ روسيا، ترجمة: عبدالله سالم الزليتني،(ليبيا: المكتب الوطني للبحث والتطوير،2007).
21. فريزر، جيمس ، الفولكلور في العهد القديم، ترجمة: نبيلة ابراهيم، مراجعة: حسن ظاظا،(القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،1972).
22. فريزر، جيمس ، الغصن الذهبي: دراسة في السحر والدين، ترجمة: احمد ابو زيد،(القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر،1971).
23. فيرغسون، جون، الموسوعة الصوفية والديانات السرية، ترجمة: محمد الجورا،(دمشق: دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع،2014).
24. كاظم وعبد، قحطان حميد واحمد محمد جاسم ، "التطورات الداخلية في الاتحاد السوفييتي 1918-1939"، مجلة كلية التربية الاساسية، جامعة بابل، العدد:17، لسنة:2014.
25. كامبل، جوزيف، البطل بألف وجه، ترجمة: حسن صقر،(دمشق: دار الكلمة،2003).
26. كساب، حنانيا الياس، مجموعة الشرع الكنسي أو قوانين الكنيسة المسيحية الجامعة،(بيروت: منشورات النور،1998).
27. الكلمة عن حملة ايغور، ترجمة: خميس حرج نشمي،(موسكو: دار رادوغا،1989).
28. كورتل، آرثر، قاموس اساطير العالم، ترجمة: سهى الطريجي،(دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع،2010).

29. كون، كارلتون ، قصة الإنسان، ترجمة: محمد توفيق حسين وعبد المطلب الأمين، مراجعة: محمود الأمين،(بغداد: المكتبة الأهلية، بلا. ت).
30. لينين، ڤلاديمير ايليج، مسألة الأرض والنضال في سبيل الحرية،(موسكو: دار التقدم،1969).
31. لينين، ڤلاديمير ايليج، التحالف بين العمال والفلاحين،(موسكو: دار التقدم،1970).
32. لينين، ڤلاديمير ايليج، المختارات،(موسكو: دار التقدم،1977)،ج7.
33. محمد، طارق منصور ، قطوف الفكر البيزنطي،(القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع،2002)،ج1.
34. منتس، أ، كيف حدثت ثورة اكتوبر، (موسكو: دار التقدم،1987).
35. موزر، تشارلز أ. ، تاريخ الادب الروسي،(دمشق: منشورات الهيئة السورية للكتاب،2011).
36. ميغوليفسكي، أ. س. ،اسرار الآلهة والديانات، ترجمة: حسان ميخائيل اسحاق،(دمشق: منشورات علاء الدين للطباعة والنشر،2009).
37. هوفبيرغ، هيرمان ، اوركو البقرة العملاقة: حكايات شعبية من السويد، ترجمة: هالا دروج،(ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث،2010).
38. هينليس، جون ر. ، معجم الاديان، ترجمة: هاشم احمد محمد، مراجعة وتقديم: عبد الرحمن الشيخ،(القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية،2010).
39. الياده، ميرتشيا، تاريخ المعتقدات والافكار الدينية، ترجمة: عبد الهادي عباس،(دمشق: دار دمشق للنشر،1987)،ج3.
40. الياده، ميرتشيا ، التنسيب والولادات الصوفية، ترجمة: حسيب كاسوحة،(دمشق: منشورات وزارة الثقافة،1999).
41. الياده، ميرتشيا ، الاساطير والاحلام والاسرار، ترجمة: حسيب كاسوحة،(دمشق: منشورات وزارة الثقافة،2004).
42. يبيڤانوف وڤيدوسوڤ، بيوتر وايڤان، تاريخ الاتحاد السوڤييتي، ترجمة: خيري الضامن ونقولا الطويل،(موسكو: دار التقدم، بلا. ت).
43. يحيى، اسامة عدنان ، السوما-الهاوما والسيد المسيح: نظرة في معتقدات شرقية قديمة،(بغداد: اشوربانيبال للكتاب،2017).

44. يحيى، اسامة عدنان ، السحر والطب في الحضارات القديمة: دراسة تاريخية مقارنة،(دمشق: صفحات للدراسات والنشر،2019).
45. يحيى، اسامة عدنان ، عالم الاموات: اسرار العلاقة بين الموتى والاحياء،(بغداد: اشوربانيبال للكتاب،2019).
46. يحيى، جلال، التاريخ الاوربي الحديث والمعاصر،(الاسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، بلا. ت).

Sources

47. Barford, Paul, The Early Slavs: Culture and Society in Early Medieval Eastern Europe, (New York, 2001).
48. Barford, Paul, The Early Slavs: Culture and Society in Early Medieval Eastern Europe,(London,2001).
49. Beazley, Raymond, Neville Forbes and G.A. Birkett; Russia From The Varanglans to the Bolsheviks.(Oxford.1918).
50. Bonfante, Larissa, "The Scythians: Between Mobility, Tomb Architecture, and Early Urban Structures", in: The Barbarians of Ancient Europe: Realities of Interactions,(Cambridge, 2011),PP.107ff.
51. Ching, Francis D. K., Mark Jarzombek and Vikramditya Prakash, A Global History of Architecture,(New Jersey, 2011).
52. Cross , S. H., "Primitive Civilization of the Eastern Slavs", in: American Slavic and Eastern European Review, Vol:5m Issuse:1-2, 1946.
53. Darkevich, V. P., "Topor Kak Simvol Peruna V dervnerusskom inzychestve", in: Sovetskaia arkheologiia, no.4, 1961.
54. Delaby, Laurence, "Yakut Religion", in: Encyclopedia of Religion, Editor: Lindsay Jones,(New York,2005),Vol:14.
55. Dvornik, Francis, The Slavs: Their Early History and Civilization,(Boston,1956).
56. Eliade, Mircea, Shamanisms: Archaic Techniques of Ecstasy,(London,1964).

57. Eliade, Mircea, "Shamanism: An Overview", in: Encyclopedia of Religion, Editor: Lindsay Jones,(New York,2005),Vol:12.
58. Ellis, Linda, The Cucuteni-Tripolye Culture: Study in Technology and The Origins of Complex Society,(Oxford, 1984).
59. Frazer, James, The Golden Bough,(New York,2002).
60. Gimbutas , Marija, "The Lithuanian God Velnian", in: Myth in Indo-European Antiquity, edited By: Gerald J. Larson,(Berkeley,1974).
61. Gimbutas , Marija, "Baba Yaga", in: Encyclopedia of Religion, Editor: Lindsay Jones,(New York,2005),Vol: 2.
62. Gimbutas, Marija,"Perun", in: Encyclopedia of Religion,(New York,2005),Vol: 10.
63. Goga, Mircea, La Roumanie Culture et Civilisation,(Paris,2007).
64. Goldberg , Eric, Struggle for Empire: Kingship and Conflict Under Louis the German 817-876(Conjunctions of Religion and Power in the Medieval Past),(Newyork,2006).
65. Hackel, Sergei, " Nikon", in: Encyclopedia of Religion, Editor: Lindsay Jones,(New York,2005),Vol: 10.
66. Hilton, Alison, Russian Folk Art,(Indiana, 1995).
67. Holloway, April, "Archeologists unearth 6000 Year Old Temple in Ukraine", in: Ancient Origins, 21 October, 2014.
68. Hopko, Thomas, "Vladimir I", in: Encyclopedia of Religion, Editor: Lindsay Jones,(New York,2005),Vol:14.
69. Jakobson, Roman, "Slavic Mythology", in: Funk and Wagnalls Standard Dictionary of Folklore Mythology and legend,(New York, 1950),Vol:2.
70. Jarus, Owen, "6000 Year Old Temple With Possible Sacrificial Altars Discovered", in: Live Science, October, 20, 2014.
71. Johnson, James William, "The Scythian: His Rise and Fall", in: Journal of the History of Ideas, Vol. 20, No. 2, 1959, pp.250–257.

72. Kennedy, Mike Dixon-, Encyclopedia of Russian and Slavic Myth and Legend,(California,1998).
73. Kobylinski, Zbigniew, "The Slavs", in: The New Cambridge Medieval History, Edited By: Paul Fouracre,(Cambridge,2005),Vol: I.
74. L. Stanton, Andrea (editor), Cultural Sociology of the Middle East, Asia, and Africa: An Encyclopedia,(Los Angeles, 2012), Vol: 1, P.5.
75. Lenin, V. I., Collected Works,(Moscow,2011),Vol:26.
76. Markessini, Joan, Around The World of Orthodox Christianity: Five Hundred Million Strong The Unifying Aesthetic Beauty,(Pennsylvania,2012).
77. McDermott, Mercia, Bulgarian Folk Customs,(London, 1988).
78. Shubin, Daniel H., A History of Russian Christianity,(New York,2004),Vol: I.
79. Siikala, Anna-Lewna, "Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism", in: Encyclopedia of Religion, Editor: Lindsay Jones,(New York,2005),Vol:12.
80. Tacitus, A Treatise on The Situation, Manners and Inhabitants of Germany,(Oxford, 2013).
81. Tostaya, T. V., The Assumption Cathedral of the Moscow Kremlin: Fir the 500th Anniversary Russian Culture,(Moscow,1979).

المحتويات

ان تاريخ الدين في روسيا يمثل دراسة ذات اهمية بالغة للمؤرخين المهتمين في تاريخ الدين بشكل عام؛ والمؤرخين المختصين في تاريخ روسيا بشكل خاص؛ لأنها تقدم اضاءة على احدى جوانب التاريخ الروسي التي قل تسليط الاضاءة عليها، ولاسيما في المكتبة العربية التي ركزت بشكل كبير على الدراسات السياسية والاقتصادية؛ فضلاً عن ذلك ان المكتبة العراقية بشكل خاص تعاني من نقص كبير في دراسة التاريخ الروسي، الذي يُعد مجالاً خصباً للمؤرخين لاسيما في مراحله الاولى، وذلك بسبب ندرة المؤلفات حول هذا التاريخ، فهي إما في اللغات الاجنبية، أو مترجمة، وحتى هذه المؤلفات فهي قليلة وليست ذات اهمية في المؤسسات الاكاديمية، مما ادى الى اهمال الكتابة في هذا المجال من قبل المختصين في التاريخ الحديث والمعاصر، وعدم توجيه طلبة الدراسات العليا للكتابة في حقل الدراسات الروسية؛ مما جعل تاريخ روسيا تاريخاً غائباً مهملاً في كافة مراحله في الدراسات الاكاديمية.

